زدني علماً

كلود دلماس

تاريخ الحضارة الأوروبيّة

ترجمة

توفيق وهبه

منشورات عويدات
بيروت - باريس

تاريخ
الحضارة الأوروبية

كلود دَلماس

تاريخ الحضَارة الأوروبيّة

ترجمه
توفيق وهبه

منشورات عويدات
بيروت . باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٢

مقدمة

« ليس المؤرخ من يعلم، إن المؤرخ من يبحث، وإننا لباحثون » .

لوسيان فيفر

السائد في أذهان الرأي العام أن الحضارة الاوروبية موروثة عن اليونانيين والرومانيين واليهود . إن هـذا لصحيح ، فمن العبث ان ننكر تلك القربى الروحية المتسمة بالحتمية ، ولكن الخطأ في الظن بأنه حقيقة مطلقة وواقع جازم . إن هـذه النظرية تكتفي بردّ الحضارة الى قيمها المعنوية وتفسح المجال للاعتقاد بأن الحضارة الاوروبية ما تطوّرت إلا في إطار لاهوتية القوى الثلاث: اليونانية والرومانية واليهودية ، وتجعل من اوروبا مجرد فكرة ليس إلا .

أجل لن يدور في خلدنا ان نجحد عظم الانتفاضات النابعة من التاريخ القديم ، ولكن الاقتصار على اعتماد هـذا الشيء معناه إغفال جملة نواحٍ من البحث ، من مثل المغامرات الكبرى وليدة القرون الوسطى ، والاكتشافات الجسيمة التي جاء بها القرن العشرون روحية كانت أم مادية ، والثورات التي تنذر قرنهـا في يومنا هـذا ، وأخيراً الأدوار التي تلعبها البورجوازية ، وطبقات الشعب الوسطى ، وانبعاث الحركة العمالية والانقلاب الصناعي .

إن ثمة سؤالاً ينبغي طرحه في بدء هذا البحث : على أي نطاق تاريخي ، وعلى أي مدى من التفاعل مع الاستمرار والانقطاع ، نمت الحضارة الاوروبيـة في

مطلع عهدها ؟ إن هـذا التساؤل يبدو في نظرنا أكثر خطورة من توحيد اوروبا التي كانت خيالاً من الخيالات، فإذا بها اليوم قمة الفلاح من حيث انتفاعها بالفحم والصلب والمواد الخـام والاوراتوم والسوق المشتركة . إن الاوروبيين جادون في اكتشاف اوروبا العصرية ويسهم في هذا العمل أهل الرأي والفكر ، حتى ان النزاع فيها أفضى الى دراسة أجهزتها وكيانها ووسائلها الدفاعيـــة وإلى خلق الحلف الاطلسي ، فتبينت الجماهير مشاكلها الحيوية ، وتنبّـه الناس الى صوت الضمير ، وتنادوا لإحياء وجدان اوروبي لا يقتصر على تفسير المفاهيم الفلسفيـة وتحليل الآراء السياسية .

ففي حدود أي تيار من تيارات الحضارة يجب وضع هـذا الضمير الاوروبي وتركيزه ؟

قد يميل البعض الى الأخذ بأسطورة اوروبا ابنة الملك الفينيقي (أجينور) بينما ينصرف البعض الآخر الى استجلاء الحالة التي كان عليهـا الانسان الاوروبي قبل اكتشاف الحرف ، وإلى المقارنة بين النجوم والكواكب الطالعة في هـذه السماء او تلك ، زهرة أركوتسك أم زهرة ويلنـدورف ، او المفـاضلة بين فن لاسكو والتصوير الاسباني ، او تمجيد هياكل وأنصاب عريقة .

من المفيد التذكير بأن اوروبا اذا كان قد قطنها أناس قبل عصر الجليد فان الزراعة الاولى واتخـــاذ الأرض أشكال حقول ومزارع لم يتحققا إلا في عصر الاتيوليتي .

بأي شيء مدينة اوروبا لليونان ؟

إنهـــا مدينة لروما ولامبراطوريتها بالقالب أعني بالشكل ثم بخط مفهوم حدد معـالم الانسان والمجتمع وأخيراً بفكرة سياسية حقوقية وسيـاج متين . واذا كانت الامبراطورية الرومانية لم تخلق اوروبا فقد هيأتها للمسيحية : النفس وجوهر الحضارة .

على أن الاعتراف بهذه الحقائق لا يفضّ المعضلة. فالسؤال : ما هي الحضارة الاوروبية ؟ وهو سؤال يتلاصق وعبارة لوسيان فيفر : إن التـاريخ لا يعرض

على الناس كتلة من الحوادث المبعثرة ، إن عمل التاريخ هو تنظيم هـذه الحوادث وشرحها وإعطاء كل حقبة من حقبه ما تستحق من الانتباه والأهميـة . إننا نستخرج من الماضي ما نستخرج ونجمعه ونرتبه على قاعدة وأساس. إن استنطاق الموت يكون على قدر سبر الحيـاة ، فلا تاريخ بلا تصميم عمل وتخطيط منهج . يقول ماجندي : إنني أتنزه هنا كلاقط الرقاع ، وأجـد في كل خطوة أمراً عجيباً أخزنه في جعبتي. إن العالم الفرنسي (لابيك) يعارض زميله (داستر)[1]، فالحقيقة بنت البحث . فإذا جهل الانسان الشيء الذي يبحث عنه وقع على شيء لا يعرفه !

ليس علينا ان نتجاهل الوقائع ولا الأشخاص إن هـذا التجاهل خطأ فادح . وعلينا التأكيد انه ليس في الحياة رجال منطوون على نفسهم ، وأن جميع النشاطات الفردية تنصهر في الأحداث الاجتماعية المتشعبة المسالك:أحداث متزاوجة متلاصقة كما يقول علماء الاجتماع . وهـذه الأحداث ترتدي أشكالاً ووجوهاً وأحجاماً ومعانٍ متباينة .

ليست المشكلة في تجاهل الفردية بحجة انهـا مغلقة على ذاتها بل يجب تخطي هذه الفردية وتعريتها من القوى الكامنة فيها ، وإحداث ردة فعـل ضد التاريخ القـائم على أعمال بضعة أبطال أفذاذ . إن تراشكي يعتقد : إن الرجال هم الذين يصنعون التاريخ . ويجيبه فرنان بروديل : والتاريخ هو الآخر يصنع الرجال ، التاريخ العميق ، الصامت المغفل ، الذي يفرض معـالجة الحقائق الاجتماعية بحدّ ذاتهـا ، أي الصور العريضة للحياة التعاونية ، وللاقتصاد العـام ، والأنظمة والدساتير والحضارة ، إن التاريخ من حيث انه قـابل الجدل يدوم ويبقى على قيد الحياة .

●

ان تاريخ الحضارة الاوروبية لا يبدأ في وقت معين . وعلينا أن نختار بدأه ،

---

١ - عالم في الفيزياء كزميله الاول . (المترجم)

اختياراً افتراضياً ، على أن ثمة أسباباً تهيب بنا أن نحدد مطلعه في عصر الكرولنجية [1] ، وهذه الأسباب تسهم في تفهم معنى اوروبا وكيف تكونت ، وما هي نسبة طريفها وتليدها . وليس لعنصر الصدفة يد بين فرض الحصار الاسلامي على البحر المتوسط وظهور الشعب التركماني الى الميدان ، بل بالعكس فهناك صلة بين المقدمات والنتائج. ان امبراطورية الفرنجة أرست لأوروبا القرون الوسطى أسسها وقواعدها ولكن اوروبا لم تكن لتتوجد بدون الاسلام . إن تاريخ المملكة الفرنجية يقسم الى قسمين متباينين ومتناقضين : الأول ما زال رومانياً متوسطياً ، والآخر لم يبق له أثر . وبين الاثنين يركز الهجوم الاسلامي الذي قضى على وحدة البحر المتوسط ربيبة العهد الامبراطوري الروماني.

ان الحضارة القديمة ، يقول مارك بلوخ : كانت محومة حول البحر المتوسط ، ويقول بلاتون : لم نكن نقطن من الأرض سوى الجزء الممتد من مياه فاز Phase حتى أعمدة هرقل ، والمنبسط في جوانب كأنه نمل أو ضفادع حول مستنقع ، وبالرغم من الفتوحات والغزوات ، ظلت هذه المياه على مرور العصور محور « رومانيا » وكان في استطاعة عضو مجلس الشيوخ في مقاطعة اكيتين أن ينقل نفوذه الى ضفة البوسفور ، وأن يستولي على أملاك شاسعة في مقدونيا ، وكان تقلب الأثمان يهز الاقتصاد من الفرات حتى غاليا (فرنسا قديماً) ، وبدون قمح افريقيا لم تكن لروما الامبراطورة وجود كما لم يكن وجود لعلم اللاهوت الكاثوليكي بدون الافريقي أغسطينوس . وعندما اجتيز نهر الرين أطلت بلاد البربر معادية ومحاربة .

إن « صلح رومانا » لم يفض إلا الى التقريب في القاطعات ، بين شكلي حضارتين، ذلك أن الحضارة الرومانية الريفية كانت متصلة بطرق غير مباشرة بفلاحي البلدان المحتلة. فالمدن والأرياف لم تكن موحدة ولا مجمعة بعامل المصالح والمشاغل المشتركة ، فمعظم مدن الامبراطورية ، والمستعمرات الناشئة عقب الحملة كانت منشئات اصطناعية ولا يصح أن نسمي في الغرب ورش الصناعة

---

١ ـ السلالة الثانية لملوك فرنسا .

اليدوية بمراكز صناعية تجارية ضخمة . فالسوق هي التي كانت تجسد الوحدة الحضارية على الصعيد الاقتصادي ، ومنها شعّت النهضة ، فلا المدن الرومانية ولا التجمعات اليونانية كانت نماذج المدن الغربية . والأثر الوحيد الذي خلفه اليونانيون والرومانيون اقتصر على الدين والإدارة والحكم . وقد تم تجمع السكان خارج المدن القديمة ، حول المدافن والمقابر التي كانت منـابر المسيحية ، تلك المنابر التي ألفت نواة نشوء حضارة جديدة.

ومهما يكن في الأمر من غرابة ، فبعث حضارة ايجه لا مندوحة عنه ، سواء في المواقع التي شيدت فيهـا القصور الملكية (في غنوس وفاستوس) او حيث استقر العمال الحرفيون (كورنيا) أو حيث قلعة التجارة وحوض بنـاء السفن (موخلوس وبسيرا) .

أجل ان الحقول في كريت كانت مزروعة ومشغلة ، ولكنها لم تكن الغلات كافية لسد استهلاك الجزيرة. فما العمل إذن ؟ هل التجارة! ان الأرض لا تشبع ، إذن لا بد من الالتفات الى البحر ! والفلاح لم يهجر المدينة وما نأى عن البحر ، فالمدن هي مرافىء ، والمرافىء مستودعات ، ومعارض لتعاطي الأخذ والعطاء.

وفي منتصف القرن العاشر كان التجار في فلاندر وجرمانيا يجمعون السلع في مخازن المرافىء عند إبحارهم. وحلت كلمة (بورتيس) مقام كلمة (ماركاتس) . وكان هؤلاء التجار يقضون لياليهم في المرافىء وفي الخـانات المرتجلة وكانوا يؤثرون التعرف الى المدن الناشئة كذلك كان الحال في غاليا بعد مرور قرن حيث أنشىء في جوار الأديرة قرى وأسكلة وأحياء سميت باسم بركس [1] ثم تطورت هذه التسمية الجرمانية ، فصارت سوقاً أقام فيها أصحاب الحرف معارض اصناعاتهم اليدوية .

إن كلمة اسكنديناڤيا القديمة (فيك) ليست من المصدر اللاتيني (فيكوس) بل ان معناها (باي) أي الخليج .

---

١ يعني ضاحية أو مشيخة . (المترجم)

وكان المهاجرون يؤثرون الإقامة في جوار المرافىء . إن بعث الحياة الريفية التي عقبت انهيار العالم القديم،وبطولة الفلاحين والتجار والمقاتلين هما اللذان رسما آفاق الحضارة الاوروبية . لذلك ليس من المستغرب الإشادة بفضل سكان كريت أسياد البحر المتوسط ، ثلاثة آلاف سنة قبل الفيكينغ الناشطين في كل ميدان المستولين على جبهــة الاطلنطيك من اوروبا الى نافا الى جبل طارق ، الزاحفين الى إيران وتركستان ، النـــازلين في اوكرانيا المستعمرين ايرلندا ، المكتشفين شواطىء اميركا ، والمهددين بيزنطة سواء من البحر او من مملكتهم في صقليـة . كل ذلك على متن اسطول شقّ عباب الحضارة الاوروبية على غرار أهــالي إيجه الذين اجترحوا معجزة اليونان والحضارة القديمة .

إن التحام البحر المتوسط الشرقي من جهـة ، وجرمانيا واسكندينافيا من جهة اخرى لا يقدم كثيراً مما يظن البعض ، لأنه يرجع الى عهد التماثيل الجبارة. فقد عثروا في شمال اوروبا على آثار ثقـافة متوسطية وعلى مخلفات سكان كريت في عصر التخلف وعلى بقـــايا فينيقية يونانية ، كذلك وجدوا أساليب تفكير عبادىء عامة ، وآراء وأنظمة من أنواع شتى أي مجموع قطع معـدنية واسانية أخذت طريقها نحو الشمال ، على طول الطرق التجارية .

لقد كان بحر البلطيق شبيهاً الى حد ما بالبحر المتوسط . فقـد وصفه مارك بلوخ عنـدما زار شواطئه وجزره بأن مؤسسات أهلية كانت تشبه مؤسسات المتوسطيين من حيث ظهورها بظهر الدول الريفية فمرفأ بركة في جزيرة مالار كان مزدهراً منذ القرن التاسع ، وفي بلدة «لاند» كان غزاة اسكندينافيون قد جمعوا مقـادير كبيرة من الذهب ، وفي جزيرة كوتلند كانوا يعوضون عن عطل المواسم الزراعية بصناعة الملاحة .

هذا هو أحد قطبي اوروبا .

أما القطب الآخر فكان في البندقية ، تلك المدينـــة التي كانت مقر العظماء وحليفةبيزنطة والمسلمين،ووريثة الكريتيين،ومستعمرة أقوام هبطوا بحكم جوارهم

من البلطيق نحو الجنوب .

وبين هاتين الامبراطوريتين البحريتين ، ومن خلال القارة ، كانت جماعة من الرحّل تجوب هذه الأصقاع ، هي جماعة التجار السائرين وفق الدليل، يزورون المعارض والأسواق حتى اذا طاب لبعضهم المناخ استقروا. وقد انضمّ الشرقيون الى أهالي اسكندينافيا ولا سيما الشرقيون اليهود الذين طافوا في اوروبا، وعقدوا الصفقات على مرور القرون ، وطرحوا في الأسواق مختلف العملات والنقود . على أنه في ذات الوقت ، كانت جماعة من فلاحي الارتزاق يحرثون الأرض ويزرعونها ويرفعون مستوى معيشتهم . ثم توغل أبناء هؤلاء الفلاحين في المدن حيث أنشأوا الصناعة الحرة اللازمة لحياة الريفيين . وهكذا اضطرّ عدد كبير من أفرادها الى مغادرة السقف الأبوي بحثاً عن موارد جديدة . إن الزراعة استنفدت قسماً من الأيدي العاملة لا جميعها ، بينما كان الرق والعبودية في طريق الزوال . فحدث تطور مزدوج : ارتفاع أعداد الأيدي العاملة الضرورية بسبب زيادة السكان ، وضعف القوة المولدة بسبب إلغاء الرق ، بحيث شاد الأهلون طواحين تُدار بالماء مكان تلك التي كان يديرها العبيد الأرقاء ، واستعانوا بالحيوانات كالخيل والماشية ، وضاعفوا ساحات التبادل التجاري ، ونظموا أعمال المرافىء وأصول العمل ، وبنوا القرى الريفية حتى صارت مراكز تجارية ومقراً للصناعيين ، وقضى اضمحلال نظام المساحات الشاسعة ونظام الاحتكار في القرن العاشر على ضيق المجال الصناعي الذي عُرف في القرون الوسطى ، وفتن الملاكون والمستثمرون بمكاتب الاتجار واتسع ملاك الموظفين والمستخدمين ، واستتبّ شيء من التوازن بين طبقات الشعب . وكان عصر الوسيط اليوناني قد صرف الاهلين عن زراعة إيجه الى زراعة اصولية . وبعد الف سنة من النهضة اليونانية نشبت أزمة فقر وحرمان واهتراء الى ان بزغ فجر الحضارة الاوروبية ، وبالأحرى حضارة اوروبا الاطلنطية !

وفي أي إطار ، وتحت فعل أي عوامل تكوّنت اوروبا هذه ؟

يقول هنري بيرن : لقد حدث في آخر القرن الثامن من عصرنا شيء لا شبيه له من قبل في اوروبا الغربية ، فلأول مرة منذ بزوغ فجر العصور التاريخية تنتقل بيئة الحركة السياسية وحركة الحضارة العامة من حوض البحر المتوسط الى حوض البحر الشمالي . إن قطب الامبراطورية الرومانية كان في روما ، وقطب امبراطورية الكرولنجيين كان مستقراً في المنطقة بين نهر الرين ونهر السين، وها هي روما الآن تُحاصَر ويُرمى بها الى حدود اوروبا الجديدة، وعند خروج اوروبا الغربية أي اوروبا الشارلمانية من اسرة المتوسط، اتخذت شخصية مستقلة: فامبراطورية الفرنج تصدَّت للامبراطورية البيزنطية والكنيسة اللاتينية للكنيسة اليونانية ، وناهضت الاقطاعية وأصحاب الأملاك الشاسعة المدن التجارية والحكومة البيروقراطية في الاستانة القابضة على زمام الأراضي .

وبالرغم من انهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب ظلَّ البحر المتوسط يتزعَّم اتجاهاً جذاباً ، ففي القرن الخامس تركَّز « الفندال » في افريقيا و « الويزيغوت » في أكيتانيا واسبانيا ونزل «البورغوند» في وادي الرون و«الأوستروغوت» في إيطاليا وحاول كلوفيس اكتساح المقاطعات، وظل المتوسط للجرمان مـا كان لهم سابقاً : محطة وسط في اوروبا ، ذلك لأن تيودور كان يحتل ايطاليا وكان يتحكم بالممالك البربرية تحكماً لم يفكر أحد بأن ينازعه إياه ، وكان التوازن التقليدي قوياً بحيث استطاع جوستينيان ، بعد وفاة تيودور ان يحافظ على الامبراطورية الرومانية ويبعثها وكانت بوويس وكاسيودورا إيطاليتين، مثلما كان القديس بنوا وغريغوريوس الكبير وازيدور أسقف اشبيلية اسبانيين.

وأخيراً فإنه حتى منتصف القرن السابع ، وبفضل الملاحة في المتوسط بقي الغرب تحت رحمة الاقتصاد الشرقي . ولم تكن اوروبا الغربية قد قطعت صِلاتها بتطور العصر القديم التاريخي ، ولم يكن ثمة شيء ينبىء عن نهاية الوحدة الحضارية التي شادتها الامبراطورية الرومانية من أعمدة هرقل الى بحر إيجه ، ومن سواحل مصر وافريقيا الى سواحل ايطاليا واسبانيا .

ثم طرأ عامل فجائي قوّض هذه المجموعة المتجانسة هو الغزو الاسلامي . لقد مات محمد عام ٦٣٢ م. بعد أن أعلن الجهاد المقدس الذي بدأ باحتلال مكة (٦٣٠) مروراً بالاستيلاء على الجزيرة العربية وانتظروا حتى أخضع الاسلام سوريا (٦٢٩–٦٤٠) والعجم (٦٣٧–٦٤٩) ومصر (٦٣٩–٦٤٧). ثم استؤنف الهجوم على آسيا الصغرى وأرمينيا (٦٤٦–٦٦٦) وهدّد الامبراطورية البيزنطية نفسها . وفي السنة ٦٧٣ حوصرت الاستانة ، ولم تنقذ المدينة إلا بفضل بطولة الامبراطور ليون الثالث إيزوريان الذي صدّ الزحف الاسلامي ، وهكذا نجت دنيا البيزنطيين ولكن المضي لم يتوقف عند افريقيا الشمالية (التي احتلت بأسرها عام ٧٠٩) . وبعد افتتاح اسبانيا (٧١٤–٧١٩) شن المسلمون هجوماً أفضى بهم الى احتلال روسيون ولانغدوق السفلى. وأخيراً زحفت الجيوش العربية المختلطة على تولوز الذي دافع عن حياضها دوق آكيتين. وهبط المسلمون عام ٧٢٥ وادي الرون وغزوا «اوتن» . وفي عام (٧٣٢) دحر الأمير عبدالرحمن حماة مضيق «غارون» في مدينة بوردو واتجه نحو بواتيه وطور، ولكن انتصار شارل مارتل أنقذ الغرب . واستمر الغزاة العرب في غزوهم من ارل الى افينيون ، ولكن بضعف ووهن وإذا كانوا قد أرغموا على الجلاء عن الأراضي الغالية (الفرنسية قديماً) فلا يعني هذا انهم تخلوا عن سيادتهم الاسلامية على اسبانيا وعلى البحر المتوسط . وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون : ان النصارى لم يكن في وسعهم أن يمخروا عباب هذا البحر ولو على ظهر خشبة .

عظيمة ردة الفعل هذه وقد فصمت العرى بين الشرق والغرب . وفي غضون القرن الثامن فترت التجارة على الشواطىء الشرقية عن طريق مرسيليا والآرل . وقبلاً كان شحن الزيوت المستعمل في الكنائس يجري عبر مرسيليا . وكانت شجرة الزيتون قد وجدت تربة تلائم زراعتها ، ولكن الانتاج لم يكن كافياً للاستهلاك العام نظراً الى أن اللحوم الحيوانية كانت محرمة على المسيحيين طوال الصيام الذي يمتد الى خمسين يوماً .

وكان الزيت المادة الدهنية المسموح بأكلها مدة طويلة من السنة . وكان الزيت يجلب من مصر ، وكان رئيس الدير يبعث كل سنة برسل الى مرسيليا لاستحضار الزيوت لصومعته ، وكانت الطرق مأمونة ، بفضل قوافل قديمة العهد . ويذكر ان الملكة برونهو قصدت الى مرسيليا ، وان الملك داغوبير أنشأ عام ٦٢٩ سوقاً بين باريس وسان دنيز هي بمثابة معرض كان يؤمه أهالي الجوار . وعبر مرسيليا كانوا يجلبون ورق البردي ، المستعمل للكتابة . وفي مطلع القرن الثامن كف البردي عن أن يكون أداة للكتابة واستغني عنه انصرافاً الى رق الحيوانات المجفف والمصقول . وهكذا سبقت حضارة جلد الأغنام حضارة الورق المعروف الآن ، وامتازت بظهور الكتاب ، وقبلاً لم يعرفوا سوى الرسائل المطوية (الطوامير) الصعبة القراءة .

وهذا الاكتشاف الذي لم يثبت تاريخه بالضبط جرّب على جلد الضأن وشاع في القرن الأوسط، حيث كثرت تربية النعاج وأصبحت صناعة رائجة ربما كانت الصناعة الوحيدة في ذاك الزمن . لقد كانت الأديرة في انكلترا وفي الفلاندر وفي فرنسا مرابع لتنمية الماشية لأن انتاجها بعد الفتح الاسلامي غدا حاجة ملحة للمجتمع الغربي .

متى تبدأ مرحلة الشعور عند مواطن ليون وآرل بعاطفة الاغتراب ؟ ان هذا المواطن في القرن الرابع كان يحسب نفسه أنه في بلده في قرطجنة ، وفي اليونان ، وفيما وراء الرين كان معدوداً من جماعة البربر . وفي القرن الحادي عشر لم يكن غريباً في لوبيك، وهو في تونس موجود عند غير المؤمنين، وفي الشرق اليوناني كان خدين أهل الانشقاق . ان التجمع في الشمال الذي أفضى الى خلق فكرة اوروبا الغربية جرى بهدوء وبطء ولكنه كان جازماً . فالعالم القديم دثر واضمحل ، وبعد أن كان المتوسط بحيرة رومانية أصبح بحيرة اسلامية ولم تكن الملاحة البيزنطية تتجاوز الشواطىء الايطالية الشرقية ولم تمخر السفن السورية البحر التيراني . والدليل على هذا التبدل الكبير ان العملة الفضية حلت

محل العملة الذهبية التي ضاهت قضية ورق البردي . وعندئذ استعـادت دولة الفرنج أمجادها وأقدارها بعد أن استبعدت عن السواحل الدافئـــة وعن بحر اللاتين وغدت نقطة جغرافية ونواة تكتل جديد : انبثاق اوروبا الشارلمانية ثم اوروبا المتوسطية . وظهرت الفوارق سواء من حيث الديانة ، والسياسة والدساتير واللغة والآداب حتى والكتابة بين العهود الملتصقة بالتاريخ القديم وأزمنة سلفاء الفرنجة الذين نادوا بالمذاهب السياسية الجديدة وبالمصائر الحديثة .

مـــا هو أصل الامبراطورية الرومانية ؟ إن مسيحية الامبراطورية ربطت مصيرها بمصير الكنيسة . وبعـد وفاة تيودور ضعفت سلطة الامبراطور حتى الرابع من أيلول سنة ٤٧٦ حيث قضى عليها أحد أبناء الوزير أتيلا وهو من قادة هرقل قضاءً مبرماً في الغرب وقامت مقامها قوتان : قوة روحية ، البابوية ، وقوة زمنية ، الجرمان . وإن نقل العاصمة من الاستانة جعل من البابا المدافع بل الدوق على المدينة الرومانية مع حق منح القادة العسكريين السلطة السياسية في الغرب . لقد حافظت البابوية على روما ، وأعاد الجرمان بناء الامبراطورية . لقد صمدت روما ولكن الامبراطورية تبدلت ، وفشلت محاولة اولى ، محاولة قـام بها أحد مؤسسي المملكة الايطالية «غوت تيودور» لإعادة بنائها ، إذ حالت بدعة آريوس دون توحيد الجرمان والرومان ، وهي وحدة لا يُكتب لها التوفيق إلا بتوحيد الإيمان . فكلوفيس الذي اختار الدين الكاثوليكي لنفسه ولفرنسا عـام ٤٩٦ كان يملي شروط الوحدة بعـــد أهالي ميروفنجيا الذين حدثتهم نفسهم بالطموح الامبراطوري ، وأيقن أهالي كورنجيا ان القوة الفرنسية هي وحدها قادرة ان تعيد الامبراطورية المقدسة الرومانية .

وفي عام ٨٠٠ وبليلة الميـلاد توّج ليون الثالث رأس شارلمان ، فبعثت الامبراطورية الغربيسة ، ولكن شكلها لم يكن شكل عالم بحر المتوسط بل انه اتسع الى ما وراء جبال الألب ، إنه شكل اوروبي . وقـد نتج عن ذلك جمود في السواحل المسيحية بالرغم من أن المسلمين كانوا قـد شادوا ثكنة في باليرما ،

وقـاعدة لقوافلهم . وهكذا مُني العهد الكارولنجي بأزمة اقتصادية حـــادة أودت بالامبراطورية التي أنشأها شارلمان .

ولما عجز الأباطرة عن إدارة البـــلاد بسبب فقرهم وقـلة مواردهم أسلموا الموظفين المأجورين الحكم وأفنى هؤلاء الملوك وجودهم ، فولدت الاقطاعية !

●

وفي هـذه المرحلة الانسانية الممتـدة بين القرن الرابع والقرن الحادي عشر وُجدت اوروبا الجديدة التي كان العصر القـــديم يجهلهـا ، والتي واجهتها على الاطلنطيك والبحر الشمالي ، وقـد أرسى الاقتصاد الغربي قواعـده على اوروبا الجديدة .

وفي حقل الزراعة كان التطور جسيماً إذ استتبت طــائفة من الفلاحين في الأرض الاوروبية الغربية . والعصور الشاهدة على هذا الاستتباب والتي عرفت مصادر الملكية الفلاحية الصغيرة جاءت جازمة ومقررة مصير تاريخ الحضارة الغربية ، وفي تعبير من وضع روبير لاتوش : ان اوروبا الغربية طلقت المنطقـة الشرقية ، وتحت ضغط الشعوب الشمالية وفي جو كثير الضباب والعتمـة ، ولد اقتصاد رجحت فيه كفة الزراعة ولم يلعب سوى دور ثانوي في بادىء الأمر في حين لعب الاقتصاد القديم دوره بواسطة الاتجـــار بالمدن . وكانت الحقول مسارح نشاط الفلاحين الذين كانوا يتهمون بالهرطقة ، وهو لقب لا ينطوي على جانب كبير من التقدير والاحترام . إن هذا القول لم يكن انحطاطاً ، بل كان عميقاً وصارماً . وفي نهاية القرن الحادي عشر عاد المتوسط يفتح أبوابه بوجــه الاقتصاد الغربي وتتبع آفاق هذا العالم ولاسيما الآفاق الزراعية . ورجع أهل الشمال الى الاختلاط بأهالي الشرق ،يسحرهم الذهب البيزنطي والاسلامي ولكن الاقتصاد الزراعي والاطلنطي كان قد رسخ قدمه في اوروبا بحيث قطع الرجاء ببعث حضارة متوسطية .

ومن هذا اليوم أُعلن نهوض اوروبا .

١ مغامرات العصور الوسطى

تتسم أوروبا من قديم القرون الوسطى بطابع فسيفساء من القطاعات الحية تكفي نفسها اقتصادياً مرة وأخرى لا تكفي . إنه عصر الحيـــاة الزراعية ، عصر الأرض التي تنبت ، وفيـــه كان التبادل التجاري والتداول الاقتصادي يجريان على نطـــاق ضيق . وقد برز في نهاية هذا العصر ، وعند انبثاق عصر جديد ، عنصر المتاجر الرحالة ، المتنقل من مكان الى مكان ، مما أفضى إلى دنو أجل التغيير في خريطة بعض أجزاء اوروبا ، وإلى زيادة الثروة سواء من حيث شق الطرق بوفرة ، أو استخدام مجاري الأنهر للنقل وقيام مدن وقرى ناشئة ، ونشوء طراز حيـاة جديدة ، وانتشار مدنية سكن حضاري . ويصادف هذا الحدث في وقت سكون موجة الغزو [1] ، واطمئنان الانسان الى سلوك طرق الأسفار . وفي هذه الفترة زاد عدد السكان، واعتمد اسلوب علمي لتنمية الأرض كي تنتج محصولاً إضافياً على أساس زراعة سنتين وإراحة التربة سنة ، عوضاً عن

١ – توقف غزو الجيوش العربية وزحف القبائل النورماندية في السنة ٩٧٢ .

الاسلوب الزراعي القائم على عدم رش البذار . ثم اعتنى الفلاح بجودة هذا البذار ، وأصّله واقتنى أصنافه الجديدة ، وأتقن زراعة الحبوب ولا سيما القمح ، وتعلم الانسان ترويض الخيل وتدجين الماشية ، وكدن الحيوان وقطره بحيث صار في الوسع أن يجر حملاً يزيد ثقله عشر مرات ، بعد أن توصلوا الى بيطرة حوافره واقتياد عدة حيوانات معاً في جر العربات . يضاف الى ذلك شيوع الطواحين على ضفاف الأنهر والسواقي وفي القمم ، وقد ساعدت مع البيادر على توفير الحنطة والدقيق ، وشحذ معدات الحدادين ، كالمنشار وآلات النجارين .

وأسهم اكتشاف البوصلة في هدي الملاحين الذين كان الخوف يرغمهم على الإبحار في محاذاة الشواطىء ، والاهتداء بنجمة القطب . وعمدوا الى نبش المقالع والمناجم . ففي غضون مئتي سنة استخرج في فرنسا وحدها مقادير من الأحجار ما عرفت مثلها أهرام مصر طوال تاريخها كله ، ولا توفرت للبناء اليوناني والروماني . وأهم تلك المقالع كانت في مغارة ستراسبورغ وبوفه . وعندئذ شن العالم في الكيمياء « أوربان الثاني » حملته الصليبية فشاد ١١ كنيسة عصرية وانتشرت « أغنية رولان » يتردد صداها من صقع الى صقع ومن قصر الى قصر . وفي خضم هذه القرائن والمظاهر بدا التاجر عاملاً خطيراً ، والتجارة حدثاً جسيماً ، يجوب الاول المدن والطرق والمسالك ولا سيما الأماكن التي يغشاها الحجاج ففي السنة ٩٤٥ لوحظت أولى قوافل الحجاج تزور سان جاك داكوبوستال ، وعقبها سيل لم ينقطع من الزائرين أدى إلى الازدهار ، وإلى تشييد كنيسة في كل منطقة يحل فيها هولاء الحجاج . وكانت هذه الكنائس المسيحية متعددة الأهداف : بيوت الله ، ومستشفيات وفنادق . وبفضل هذه الحركة أصبحت الطرق المهجورة مأهولة ، كالطرق المؤدية من جبال الألب الى روما ، والمسالك الوعرة ممهدة كما هو الحال في البيرينه ، وأخذ الناس يتنقلون مشاة أو ممتطي الخيل رغبة بالنزهة أو بعامل التقوى . وضاعف حركات الاسفار أن الضيافة كانت معدودة من الواجبات الدينية ، واطالما نظمت الرحلات

الدينية تنظيماً دقيقـــاً ، الى جانب الحجاج التجار الرحّل ، وأولئك الذين ازدروا العمـــل في الحقول ووجدوا في البيـع والشراء ضالتهم المنشودة ، وقضاء لبانتهم .

وغالباً ما أقيمت المعارض والأسواق التجارية لمناسبة عيد قديس ، وقدوم سياح . ومع تجار السلع أقبل تجار النقد والصيارفة . ولتخزين البضائع والأشياء بنوا المستودعات أي نواة مدن .

١ ـ التيارات التجارية الجارفة

إن إنشاء الامبراطورية الانكلونورمساندية ، وتكوين الدوقيات والامارات النورماندية – التي صارت فيما بعد مملكة في إيطاليـا الجنوبية وفي صقليـة – مردهما الى حافز تاريخي هو تكاثف عدد السكان في منتصف القرن العاشر ، وتضاعف القوافـل التجارية فالتجارة في الشمال وفي الجنوب أفضت الىجذب أرقاء انكلترا وأرقاء فردان نحو الموانيء المتوسطية ومنها الى اسبانيـــا الاسلامية [١] . وتميزت هذه التجارة بالرخاء والبحبوحة طوال قرنين .

وثمة نشاط تجاري اتخذ من البندقية مركزاً ، ذلـــك أن منتجات شرقية للترفيه أخذت طريقها الى ايطاليا الشمالية ولاسيما الى «ميلانو» و«بافي» . ونشط الإيطاليون بدورهم الى بيع هذه المنتجات في أعالي الألب . وعمت الحركـــة التجارية مختلف المقاطعات مروراً بنهر الرين والرون . وراجت عادة المقايضة وعلى الأخص المقايضة بالأقمشة .

وتوثقت الصلات الاقتصادية بين الشرق البيزنطي والشرق الاسلامي ، وبينهما وبين اسكندينافيا . وسهّل هذه المهام إنشاء نوع من الاهراءات فياسوج وسواها وربطها بالموانيء الواقعة في شمال المانيا .

---

١ – فتر هذا الرخاء عندما استغنت اسبانيا الاسلامية عن الأرقـــاء السلافيين ليحل محلهم أرقاء سود من افريقيا .

وانتظمت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر التجارة بين ايطاليا والبلدان الواقعة في شمال الألب، بفضل إقامـــة أسواق تجارية ومعارض في اواسط المسافات حيث تتجمع السلع وذلك اقتصاداً بالوقت ونفقات النقل والسفر بين اوروبا وبلدان البحر المتوسط. وقد عظم شأن التجارة في القرن التالي فصارت تجارة عالمية احتكرتها المدن الساحلية مثل جنوى، وبيزا والبندقية. وتميزت المبادلات بتصدير الخمور والملح الى انكلترا، واستيراد بلاد الفلاندر الأصواف الانكليزية لقـــاء أقمشة أخرى. ومن مدينة كولونيا اتجهت التجارة صوب الشرق والجنوب الشرقي حاملة شتى الأشيـاء وعلى الأخص الأصواف ومنتجات صناعة الصلب. وكانت القوافل تجتاز امـــا طريق همبورغ وممرات إلب أو ضفاف نهر الرين الأعلى والدانوب، بالاضافة الى الملاحة في البحر الشمالي بـين لندن وبروج من جهة وبريم وهمبورغ من جهة اخرى. وهذه الملاحة قبض على زمامها الألمان [1] وانتزعوها من أيدي الدانمركيين في غضون القرن الثاني عشر.

هذا وقد عزز القوافل التجارية لجوء الألمان الى استعمار ما وراء إلب وتوفق سكان ساكس ووستفاليا لتعمير المدن الالمانية على شطوط البلطيق.

وهكذا تعززت التنمية التجارية في القرن الثالث عشر. وأصبحت معارض شمبانيا المحور الذي يستقطب التجارة بين أوروبا الغربية والشمالية وبلدان البحر المتوسط، واتسع نطاق الصلات حتى وصل الى أسبانيا وانكلترا والمانيـــا الغربية. ولم يكن الإيطاليون تجـاراً وصناعيين فحسب بل كانوا أيضاً صيارفة اذ كانوا منذ القرن الثـاني عشر يقومون بوظيفة تسديد الديون والاستحقاقات في المعارض والأسواق التجارية [2]. وقد أسس هؤلاء الصيارفة شركات عامة في باريس ولندن وأسبانيا وإفريقيـــا ورودس وقبرص. والجدير بالتنويه أن الملوك والأمراء ورجـال الكنيسة وأعضاء الأسر النبيلة والتجار كانوا يتعاطون

---

١ - بالاشتراك مع الانكليز والفلامند.

٢ - على الأخص أهالي سيان وفلورنسيا وفلانسيا.

الأعمال مع تجـار المال الإيطاليين كأحسن زبائنية لهم . واشتهر أهالي بيامونته ولا سيما أسرة لونبار بتجارة النقد : قروض لقاء رهونات ، وبفائدة حرمتهـا الكنيسة وهو المعروف بالربا الفاحش المفضوح مما أوغر قلب المديونين واستشاط غضب الجماهير وكرهها[1] .

وتضاعف التيار التجاري بعد فتح طريق سان غوتار عام ١٢٣٠ الذي جعل من سويسرا الوسطى ووادي الرين حلقة تصل ايطاليا بالبحر الشمالي ، ثم صار المحيط الأطلسي ممراً بين القطاع الاسباني وسواحل المانش والبحر الشمالي. ومنذ ١٢٧٧ بدأت سفن جنوى تمخر نحو فلاندر وانكلترا . واشتد النشاط التجاري بدخول ألمانيا عالم الأعمال وتنظيمها المدن وتجميلها مرافىء البحور تمهيداً لمـا أمسى بعدئذ الكونتوار الألماني. وهذا التبادل وهذه الصفقات حتمت خلق نوع عملة أو أنواع عملة غير القطع الفضية الرائجة وقتئذ . فاستصدروا نقداً فضيـاً أفضل دعوه سترلنغ ، الجنيه الانكليزي ، وذلك في آخر القرن الثاني عشر ثم شيئاً آخر في العـام ١٢٦٦ اسمه الدورة الكبرى للفرنسية وبعده سكوا العملة الذهبية في جنوى في العام ١٢٥٢ وتلاهـا الفلورن نسبة الى فلورنسا والليرة المنسوبة الى القديس لويس (١٢٦٦) والدكـة الصادرة عن مدينة البندقية (١٢٦٤) . ومع هذا ظل النقد المسكوك غـير ملبٍ حاجـة التجارة إلى أن جرت المدفوعات على أساس المقاصة ، والتحويل وكتب الاعتماد المعروفـة في يومنا هذا !.

طرأ انحطاط وهبوط في الاعمال في القرن الرابع عشر وجزء من القرن الخامس عشر ذرّ قرنه في فلاندر عام ١٢٨٠ . وفي فرنسا وانكلترا لم تتدهور أثمان المزروعات والصناعات إلا في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ولم ينقذ الصناعة إلا السياسة التعاونيـة التي انتهجها الصناعيون . وتأرجحت الأحوال

---

١ – وجد مثل هؤلاء المرابين في انكلترا وقد أسموهم كاهوريين لأنهم جاؤوا من كاهور، وترمز اللفظة الى معنى طارئين .

بين الهبوط والارتفاع ، فما ان يتأخر موقف حتى يتقـدم موقف في مجال آخر وشكل آخر . وفي هــذه الأثناء بلغت المدن الالمانية التجارية الأوج في بحر الشمال وبحر البلطيق ، إذ كان لبحارتهم منـذ القرن الثاني عشر مراكب وسفن شراعية واسعة الحوض ضخمة الحجم تقوى على الحمولة الكبيرة ولمسافات وأبعاد قصية . وأصبح الالمان والحالة هـذه متعهدي النقل للغرب ، فاستوردوا الجمة والشاي والفراء والحديد والنحاس الخ. وكانوا يفرغون سلعهم في بروج وفي ضواحي لندن ، وفي الإياب تعود سفنهم محملة منتجات البحر المتوسط والبضائع الشرقية والجوخ الفلمندي والقصدير الانكليزي والخمر والملح من فرنسا . أما الكونتوار الالماني فوجوده الرسمي بدأ في العام ١٣٥٨ وكان من أثره ان عقدت شركات في المدن: لندن ، بروج ومربرجن ، وجلب الغنى لمقاطعات المانيا الشمالية وامتـد سلطانه الى بلدان اسكنديناڤيا والبلطيق تسود جوه روح الإنشاء والحرية واختلاط شعوبي الى جانب هندسة في البناء القرميدي .

وامتاز القرن الرابع ولا سيما نصفه الثـــاني بمضاعفة الانتباه بغرب بلدان البحر المتوسط وأهمها شبه جزيرة اسبانيا ، وكان أبطال هــذا الفتح الاقتصادي تجار ايطاليا وأكثرهم من أهـــالي جنوى . إن غرب المتوسط يتحكم بالممر الى الاطلنطيك الذي غدا طريق المواصلات لأوروبا الغربيـــة الشمالية ، مما أفضى الى تنظيم العلاقات البحرية بين جنوى وبروج منذ عام ١٢٧٧ وانكلترا منذ عام ١٢٧٨ . وفي القرن الرابع حذت البندقية حذو جنوى فأخذت سفنها ابتـداء من ١٣١٥ – ١٣١٧ تبحر الى بروج وأنفرس. وسلك الاسبان هـــذا الطريق ، وتبعهم أهالي كتلانيا ، وبرشلونة والبرتغال وتجار قشتالة .

وكانت الملاحة تسير بشكل قوافل لتعزيز وسائل الدفـاع ضد القراصنة ، وعلى نمط مقرر فلا سبق ولا توانٍ ، إذ كانت مراكب القـــلوع تماشي مراكب المجاذيف ، هذه المراكب التي – بعد ان دخل عليها تحسين فني – استطاعت ان تمخر عباب البلطيق وأن تضاهي سواها من السفن الشراعية . على أن النقل البري

لم يخفض قدره لأن حمولة المراكب لم تكن تتعدى بضعة أطنان .

ثم حدثت مفاجأة : اضمحلال فكرة المعارض تدريجياً ، معارض شمبانيا بسبب اضطراب الحالة بفرنسا من جراء حرب المئة سنة وما تبعها من أهوال .

وبفضل ممر غوتار استمرت المواصلات البرية في حرارتها بين ايطاليا وغربي اوروبا وشماليها واتخذت محورها بروج ولندن، وهكذا تمّ تلاقي عالم المتوسط وعالم بحري الشمال والبلطيق .

٢ ــ المدن التجارية

إن ثمة شبهاً بين المدن التجارية الايطالية والفلمندية والالمانية . ففي النظام الملكي والإقطاعي ، حرصت هذه المدن على استقلالها الذاتي ، وعلى طابعها الاقتصادي الحر ، وعلى تتبّع خطى الشركات الرأسمالية المعروفة في القرن العشرين . ولكن كان لكل فئة اسلوبها ، فأهالي فلاندر كانوا ينتظرون مجيء التجار اليهم للتسويق، أما الكونتوار الالماني فكان مؤسسة شحن ونقل ، وكانت فلورنسا مصرفاً ومدينة صناعية . وكانت البندقية وجنوى متسلطتين اقتصادياً في شبه امبراطورية استعمارية وكانت البندقية من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر صورة مصغرة عن انكلترا في القرن التاسع عشر أي ان حب التسلط خلق السلطة !

وهنا أوجد تعاطي الاعمال الكبيرة الشعور بالمسؤولية الإجماعية أعني الرغبة في إنشاء المؤسسات الحرة . واستولى على التجار والبحارة والصناعيين النزعة الى اعتناق قواعد تضمن لهم أموالهم وأرباحهم بأقل الأخطار ، فنمت في صدورهم الشجاعة الأدبية والإقدام المفقودان منذ سقوط اليونان وروما ، واعتنقوا مبادىء التعاون لا مبادىء الجمهورية بمعناها المتداول فبرز في فرنسا زعيم هذا المذهب واسمه « اتيان مرسل » ، وجارته المدن الاخرى ، وتجاوزت البندقية وجنوى وبيزا وفلورنسا حدود استقلال المجلس البلدي،وأيدت الملكية الايطالية منذ وفاة فرردريك الثاني حتى انتصار شارلكان وثبة الجمهوريات الايطالية .

وكان الفضل في جمع الثروات ونجاح الاعمال يرجع الى الامبراطورية المقدسة . وهكذا سيطرت الجمهوريات الايطالية والالمانية على أراض تفوق مساحتها أراضي بلادهما ، وكانت صناعة القنص والصيد والفراء والبهارات والأقمشة والحجارة الكريمة من الشرق مورد رزق وكسب لتجار البندقية وجنوى . ولم يكن هؤلاء يعيرون حروب الممالك أي اهتمام إلا على قدر ما تخولهم الظروف استثمارها . وبينما كان البلاط الفرنسي وبلاط الامبراطورية المقدسة ، وبلاط بلدان اسكنديناڤيا مسارح لصراع عنيف نتيجة اقتطاع الأمراء المناطق او محالفات الأسر المالكة ،كان أهل جنوى والبندقية والكونتوار الالماني يدرجون على سياسة الواقع المحسوس وعلى الجانب المادي الدائم . وامتدّ سلطان أهل هذه المدن الى المشرق وإلى الشمال في غفلة سكانها وهزال حكوماتها .

وحدث في البلطيق بعد اتحاد كلمار أن اجتازت البلدان السكندينافية أزمة فوضى فاستفاد الكونتوار من هذه المحنة ، ولم تجد البندقية وجنوى أمامها في الشرق إلا معالم امبراطورية بيزنطية على شفار الهاوية ، وجالت في رؤوس أهالي البندقية وجنوى وألمانيا فكرة الحرب المقدسة فقدموا في القرن الثاني عشر المساعدات والاعانات لإنشاء امبراطورية القدس ، ومملكة طرابلس ، وإمارة أنطاكية . ولولا أساطيلهم وتفوقهم البحري ومساندتهم الدول الفرنجية لما استطاعت هذه الأخيرة مجابهة الهجوم الردّي الذي شنته مصر وتركيا على الصليبيين على أن الجمهوريات الايطالية نالت مكافأتها اذ ازدهرت أعمالها التجارية في ظل الصليب المقدس على أيدي رجالها في عكا ويافا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية . ان اندماج الإيمان بالتجارة تجلى أكثر ما تجلى في الحملة الصليبية الرابعة عندما انحرف الأوروبيون عن مخطط محاربة الاسلام الى مكافحة الهرطقة البيزنطية ، والتوغل حتى البوسفور وتأسيس امبراطورية لاتينية والاستيلاء على زمام البحار واحتكار التجارة بأيدي البندقيين في بحر إيجه . كذلك كان احتكار الملاحة من قبل الكونتوار عاملاً لدوام الحروب الصليبية التي سلحت فرسان جرمانيا القديمة وسكان بورت كليف

مفاتيح بروسيا وليتونيا وأستونيا .

إن الحكم الفردي او تحكم الأفراد في دولة المال كان قوياً بين القرن الرابع عشر والخامس عشر ففرض إرادته على المالك . وفي القرن الحادي عشر سبقت مدينة بيزا مدينة جنوى في إخضاع سردينيا وكورسيكا. وفي القرن الثاني عشر تمكنت بيزا وجنوى بعد تحطيم اسطول خديوي مصر من ضمان النصر للصليبيين. وفي القرن الثالث عشر لم تصمد ممالك الفرنجة في سوريا وفلسطين إلا بفضل سيادة جنوى والبندقية البحرية . ولكن المنافسة التجارية بين أهالي البندقية وأهالي جنوى ما لبثت ان قلبت التجارة الى حرب في الموانىء السورية ، فكان المحاربون أبناء النبلاء عملاء وجنوداً للتجار الايطاليين . وضاعت القيم الاجتماعية العريقة ، وأصبح الأمر بأيدي الرأسماليين أسياد الشريعة ، وتغلب المصرف على السيف ، وراح السيف يستغيث بالمصرف . وهنا يطالعنا عهد جديد ، عهد الرأسمالية العصرية . وتظل المدن الحرة متخلفة عن ركبه . وتصمد البندقية ولكن المالك التي تنعم بالمناعة والقوة لم تتسامح في بقاء الاستقلالات المحلية والإقطاعات العشائرية ، فذابت المدن الفلمندية في دولة لوتارنجيا المعقودة اللواء للدوق دي بورغونيا . وفي امبراطورية شارلكان ثم في المملكة الاسبانية التي كانت تعتبر جنوى وفلورنسا مدناً تدور في فلك اسبانيا . وفي المشرق أخلى انهزام الامبراطورية البيزنطية المكان للسلطنة التركية التي قضت على الاستعمار الفرنجي .

وفي الشمال خفت صوت المدن التجارية (الكونتوار) أمام نهضة الشعوب السكنديناڤية التي جعلت من بحر البلطيق بحيرة أسوجية . ومع هذا قامت عصبة أعمال محتكرة في مكان آخر ، في انكلترا والمقاطعات النيرلندية .

٣ — البورجوازية

تحدثنا فيما سبق عن البورجوازيين . إن تطورهم طرفٌ في تاريخ اوروبا الاجتماعي .

لم تُعرف لفظة «بورجوا» إلا في عام ١٠٠٧. وفي القرون الوسطى كانت هذه اللفظة (بيرج) تعني المكان المحصّن [١] ، وأما البورجنسي فهو الذي يقيم في الحصن . وفي أوائل القرن الحادي عشر لم يكن البورجوازي إلا ذاك الذي يسكن المدن وليس من الضروري ان تكون المدينة محصّنة . إن اقتصاد العصر الأول لم يكن سوى اقتصاد زراعي قائم على أساس استثمار الممتلكات الشاسعة من حيث شروط الثروة ، وعلى أساس علاقات الأفراد المالكين والمستثمرين من حيث حقوق كل منهما . وكانت الارض مصدر ثروات الجميع ، وكان كل واحد يمارس عليها حقوقه الخاصة التي تضمن له العيش وهي حقوق تختلف باختلاف الأعراف والعادات. ومن مزايا هذه الحقوق صلة الانسان بالارض وبسيدها الذي عُرف فيما بعد بالاقطاعي .

وعند التناقض بين المتعاقدين كانت نقطة الالتقاء ان لا يهمل الفلاح الارض ولا يغادر مكانه ، وليس للسيد ان يطرده ولا ان يبيعه ، كما لم يكن لأي واحد ان يدّعي أنه مالك الارض ملكية مطلقة كالتي عُرفت في العصور الحاضرة . ولقد قامت العلاقات بين الأفراد على قاعدة الإخلاص والحماية . وأوثقت الرغبة في السلامة والأمن أواصر هذه العلاقة مضحية بالحرية الفردية .

فكّر رجل البورجوازية ان يحلّ الوثاق الذي يربطه بأرض لم تعد إطاراً لحياته. إن المانوار (قصر السيد) والماس (بيت الفلاح) والمانس (الارض التي يفلحها) والمانان (رجل الفلاحة) جميع هذه الألفاظ مشتقة من مانير أي المسكن . لقد كان البحث يدور أولاً حول توفير الاستقرار ولكن تبيّن أن في هذا المجتمع الإقطاعي أناساً يحبون السفر والانتقال والانطلاق في دنيا الأعمال التجارية ، وإيجاد موارد في غير الأراضي التي يزرعونها على حساب الأسياد ، وبكلمة واحدة الانعتاق من سطوة هؤلاء الأسياد . ومن هنا انبثقت الحركة

---

١ – ألا تعني البرج في العربية ؟ والبورجوازية هي الطبقة الغنية المرفهة ساكنة المدن والمسؤولة عن الأعمال والصناعة ولكنها دون طبقة الأشراف . (المترجم)

التضامنية الرامية الى ضمان العيش بعد هجر الارض .

قام المجتمع الإقطاعي على حلف اليمين على فضيلة الوفاء بين رجلين ، وكما أن الفلاح أقسم اليمين للاقطاعي ، أقسم هؤلاء اليمين فيما بينهم ، وشابهت «المستعمرة» ودائرة الاقطاعي امارة مشتركة .

وظل أعضاؤها يدينون بالوفاء واحترام العهود والعقود ، والوعود المقطوعة ، وإن تخللها تفسير آخر ، كأن يتعهد للفلاحين بأن يظلوا مستقلين عن أسيادهم وأن يكتفوا نفسهم بنفسهم وأن لا يعبث بحقوقهم الشرعية الخ . ولم يكن للطارئين الحق في سكن المدن او احتلال مكان الفلاح الخالي . وانتشرت هذه المبادىء بين الأوساط كدستور موضوع وإن كان يختلف عن الأنظمة التي يرد شرحها في برامج الأحزاب للسياسية المعاصرة. ومع هذا لم ينصرم ليل الصراع ، فكان الواحد يحاول أن يكون الدستور المعلن جزءاً من الوجود الانساني ويحاول الآخر تعطيل مفعوله بحيلة من الحيل . وكانت جماعة البورجوازية أينما اجتمعت تسعى الى ضمان حياتها ورزقها عن طريق التصرف بالمنتجات بقصد بيعها ، والى تأمين الدفاع عن نفسها ومهنها ومصالحها وصيانة مدنها وإصدار الأحكام والقرارات المؤيدة حقها . وما أن خرج السيد من نطاق التجمع الاقطاعي حتى دخل في نطاق تجمع آخر ظناً منه بأن الحياة المشتركة أكثر توازناً من الحياة الفردية وهي نظرية تأتلف وأصول العطاء المسيحي !

ان التعريف بين الشخص والجماعة كان يقض المضاجع ، فالواحد يعمل على هلاك الآخر ، وما أن يهجر الواحد الأرض والوسط التجاري ويذهب الى المدن حتى يسعى الى الانتماء لرهط يضمن له سلامته المادية والروحية . وكان سريع الانصهار في بوتقة المجتمع الناشىء. وموهبة الاندماج تتجلى في أن السيد بعد أن حوّل مزرعته الى هيئة مشتركة ، لم تتعثر هذه الهيئة في عملها ولم تفشل في الدفاع عن المدن ، وتوزيع العدالة وتسيير الشؤون المالية . وإذا كانت الأرض غذت من عليها فإن نظام الهيئات المشتركة كان يدر الخير ليس مما تنبت الأرض

فحسب بل مما يجنى من أرباح التصدير والاستيراد. فالمدينة والحالة هذه أصبحت وحدة اقتصادية من طراز غير مألوف . ان نفوذ المدن السياسي في العصر القديم كان عظيماً ولكن نفوذ المدن الاقتصادي في العصر الذي تلاه كان أعظم .

كانت المدن الكبيرة قليلة في المقاطعات الغربية في الامبراطورية الرومانية : نابولي ، ميلانو ، مرسيليا ، ليون . فما من مدينـــة ضاهت البندقية او بيزا او جنوى او جارت المدن الصناعية مثيـلات فلورنسا وإيبر وجاند . والمدن التي أحرزت أهميـــة عظيمة مثل اورليان وبوردو ونانت وكولونيا فاقت عظمتها بكثير المدن التي وُجدت على عهد القياصرة .

استطاع هؤلاء البورجوازيون ان يخلقوا قوة اجتماعية ذات أثر على تغيير وجه اوروبا . والثورة التي أعلنها أهالي بروج في عـام ١٣٠١ لم تكن ضربة على الطغمة البورجوازية بل كانت موجهة أيضاً الى سلطة ملك فرنسا وكانت بداية عراك بينها والمجالس الفلمندية . عندئذ صارت الحاجة ماسة الى درس القـانون الروماني المقتبَس من قوانين وأنظمة ودساتير جوستينيانوس المدرَّسة في جامعة بولونيا . وكان لهذا الاتجاه تأثير عظيم على الأفكار ، وانصرف العلمـاء الى نشر دي جست [١].

واتحدت دروس القوانين الرومانية بدراسة تعاليم أرسطو لينبثق منها فلسفة غزت الحياة السياسية .

إن درس الحقوق كان درساً علمانياً . وفي أواخر القرن الثـالث عشر أُعلن حق التشريع في مختلف أنحاء الامبراطورية ، وتكلم المشترعون عما أسموه مبدأ السلطات العـــامة خلافاً لمبدأ حقوق الاقطاعيين وحقوق الأفراد التي تحجبها الحقوق العامة التي لا يقف بوجهها أي حق خاص ، وكفَّ الملك عن ان يكون الملك المطلق بل أصبح الملك الحـــاكم . ورأى أرسطو ان المجتمع حصيلة نظام طبيعي لا نتيجة اتفاق إرادات . إن مثل هـذه الفلسفة كان لهـا ان تؤدي الى

---

١ — هي مجموعة قوانين رومانية وضعت بأمر من جوستينيانوس.

زوال العلاقات القائمة بين فرد وفرد عن طريق الإقطاعية . على ان نظريات القديس توما وسواه من فلاسفة الكنيسة كانت تختلف عن آراء المشترعين . فالقديس كان يجد في الغريزة الاجتماعية أساساً معنوياً أدبياً بدلاً من أساس الحق العام، وكان يقدّر الحق الخاص. وأخيراً تلاقت جميع النظريات ، ومُنح المجتمع قاعدة غير العقد الثنائي والكلام المقطوع، فأعلن «دانت» نهاية الإقطاعية وقيام الملكية .

وشب نزاع بين الكنيسة والدولة . نعم ان وجود سلطتين شيء قديم . ولكن التطبيق العملي كان يفضي الى اصطدام ، وأشد هذا العداء هو الذي وقع بين فيليب الجميل والبابا بونيفاس الثامن وهو أشبه بالعداء بين المجالس البلدية والأساقفة إذ كان من الضروري تفسير مبدأ السلطات العامة تفسيراً عملياً ، وكان كلما عظم نفوذ هذه المجالس في فلاندر وايطاليا والمانيا وفرنسا اتجهت الميول الى طرد رجال الكنيسة من الخدمات العامة . وهكذا مثلت المجالس البلدية لأول مرة حكومة علمانية. وكاد اتيان مارسل يحقق ما عجز عنه ارتافلد في فلاندر وهو استيلاء المجالس الفدرالية على ناصية الحكم ، وحاول أن يضفي على العرش هالة من البورجوازيين ، بدلاً من أحفاد الاقطاعيين الذين اعتاد الملك أن يختار مستشاريه من بينهم .

ولكن حدث ما أبدل وجه المصير ، فالبورجوازية الغنية تسلقت أوج النبل بفضل تقربها من البلاط وتقديمها الخدمات للملك ، وقبولها المناصب التي كانت تخول صاحبها حمل لقب شريف . فهل كان هؤلاء يبحثون عن السؤدد والمجد والنفوذ ؟ أجل وعلى الاستقرار معاً . إذ كانوا يؤثرون أن يتجنبوا الفقر والخيبة والعصر عصر تدني النقد وشحوب الثروات المهددة بشتى التهديدات . إنهم فكروا باستملاك الأراضي إذا ما فقدوا رؤوس أموالهم ، وأخيراً امتزجوا بفكرة حق الأمة .

٤ ــ البرلمـــان

إنك لتجد أول أثر للبرلمان في القرار الذي أصدره فيليب اوغسطوس قبل أن يقدم على الحرب الصليبية وذلك في العام ١١٩٠ عندما أمر بأن تجتمع في باريس محكمة قضائية كل أربعة أشهر . على أن تأسيس البرلمان الرسمي إنما تم على يد فيليب الصالح وقد دعي بمجلس العدل الأعلى . وفي هـــذه الفترة تنظمت الإدارة المالية . وفي العام ١٣٠٣ أنشوء ديوان المحاسبـة ، وأحيط الملك بجيش من الموظفين ورؤساء الدواوين والمستشارين ونائبي الملك فاشتدت عرى الوحدة الوطنية . واقترنت هذه المركزية بحركة إصلاحية في الجيش إذ لم يكن ثمـــة جيش من قبل بل كان كل سيد يحارب لحسابه ويحشد الرجال ويجهزهم بالسلاح والعتاد على نفقته . وفي عهـد الملك الصالح اتفق على أن يكون الجيش متأهباً دائماً ، وأن يقيم في الثكنات حتى في أيام السلم؛ وتقرر فرض الخدمة العسكرية ورفع مستوى الضرائب ، والاستعاضة عن الخدمة برسم مـالي وحلت المنظمات العسكرية الاقطاعية لتصبح مؤسسة وطنية ، وأعيـد إصلاح أجهزة الحكم ، ونشرت البلاغات والدعوات للشعب ، وكان الملك أول من وجـه الدعوة الى الجمعيات العامة خلافاً لما اعتاد عليه الملك لويس الذي كان يستأنس بآراء المجالس الاقطاعية ومجالس المدن قبل أن يجزم بأحوال النقد . فهل كانت المقاطعـات العامة مستهل حياة برلمانية عصرية ؟ من المجازفة أن نجزم بالأمر . ولكن الثابت ان المقاطعات العامة لعبت دوراً ايجابياً في مصير المملكة وانهـا كانت تنتخب انتخاباً لا بواسطة الأعيان والأساقفة بصفتهم الممتازة والدينيــة بل بوصفهم ناخبين اسوة بسائر المندوبين . وهذه السابقة دفعت الى نفاذ الروح الحقوقيـة لأذهان الشعب .

لقد حررت الدساتير والاجراءات العامة الانسان من العبودية ورفعتـه الى درجة مواطن . وكان لهذا التجديد صدى بعيد لأنه أعاد الناس بالذكرى لقرن

خلا الى محاولة مماثلة سجلها التاريخ الانكليزي [١] .

وفي الأنظمة التي أعلنها ملوك انكلترا وعـد صريح بأن لا يمارس الملك أي لون من ألوان العسف، وأن لا يمس حرية انتخاب الأساقفة والرهبان ولا يتدخل بمحاكم الاكليروس. ولا يحق له ان يصادر أموال الأيتام والأرامل المستولين على أراضي الأسياد .

وتضيف الأنظمة ان القضاء تتولاه محاكم تعقـد في فصول السنة ، ولا يجوز حجز حرية شخص او نفيه او تجريده من أمواله المنقولة وغير المنقولة إلا بموجب حكم قضائي . وللتجار حرية التجول في أنحاء المملكة . وقـد وحدت المقاييس والموازين . ولا تُجبى ضرائب بغـير معرفة مجلس الملك المؤلف من أساقفة وأشراف . ويشرف على تصرفات الملك لجنـة منتخبة قوامها ٢٥ نبيلاً كي لا يتجاوز صلاحيته وكي يفي بوعوده . والدستور المعلن يشمل جميع رعايا المملكة وقـد تضامن رجال الدين والأعيـان والبورجوازيون . وهكذا غدت الدساتير المعلنة أساس الحريات الانكليزية . إنها لم تكن جديدة ولكنها صارت مكتوبة بحيث لم يعد ثمة حاجة للمطالبة بعادات وتقاليد كانت شائعة على عهـد « ادوار المعترف» وهنري الأول . إن الدستور الموضوع يعتبر أول وثيقة اوروبية تؤيد حقوق الامة بوجه الأمير ! .

اتخذت حقوق الامة شكل برلمان ، واستمدت الاصول البرلمانية الانكليزية من مبادىء مناقشات المجالس الشعبية السكسونية ومن هيئـات اخرى[٢] كانت تجلس الى جانب ملوك الدول السبع التي أسسها الجرمان في بريطانيا العظمى .

أما أهالي نورماندیا فقد نقلوا بعد الفتح دساتير المجالس الاقطاعية [٣] . ولم

---

١ قضت معركة بوفين على امبراطورية بلانتاجانت،وشجعت البارونات الانكليز على احراز النصر وأصدر جان ملك انكلترا دستور تحرير الانكليز وهو بعث لحريات قديمة كان الملوك قـد وعدوا الشعب بها .

٢ – Wit - Nagemot .

٣ – Le Consilium - La Curie .

يستعمل الكتّاب كلمة برلمان إلا حوالي سنة ١٢٣٩ ، والبرلمان الصحيح لم يعرف قبل عام ١٢٦٥ . والذي كان في عام ١٢٦٥ مجرد تسوية لا قناعة أصبح فيما بعد القاعدة . وتألّف البرلمان من مجلسين : مجلس النواب المنتخب من لدن صغار النبلاء في المناطق ومن بورجوازيي المدن ، ومجلس اللوردات المؤلف من كبار الأشراف والأساقفة الذين كانوا يتلقون من الملك نفسه الدعوة للاجتماع ، والذي كان عليهم ان يلبُّوا هذه الدعوة شخصياً . وفي عهد هنري السابع وخلفائه ، احتدم الصراع بين التاج والبرلمان ولم ينتصر هذا الأخير إلا على أسنة ثورة ١٦٤٨ .

وسَرَتْ عدوى الحياة النيابية من انكلترا الى اوروبا جمعاء . وكان الاقتباس جازماً لا هوادة فيه .

٥ ــ أعمال نقب الأرض واستصلاحها

لو أحصيت مهَن الشعب الاوروبي في القرن الحادي عشر لتبيّن أن ٩٠ ٪ منه يعيشون في الحقول ويكسبون رزقهم من زراعة الارض او من الصيد او من الغابة .

ولو صُوِّرت اوروبا وقتئذ من الجو لخرجت صورة قرى مبعثرة تفصلها عن بعضها السواقي والطرق المبهمة المعالم وتتخللها الأراضي المهملة المهجورة والغابات الكثيفة والمستنقعات . وبعد ٣٠٠ سنة تريك الصورة اوروبا الكبيرة الكثيرة المدن ، الحارثة الارض ، الرادمة الشواطىء والمستعمرة مساحات جديدة . ففي عام ١٠٥٠ دبّ النشاط الزراعي في صدور الفلاحين فعمدوا الى نقب الارض واستصلاحها وهو أعظم حدث من نوعه منذ عهد ما قبل التاريخ فاتسعت المساحات الزراعية . وقديماً كانوا يتهيبون أمام الشجرة ، وكانت أدوات العمل بدائية لا تقوى على قطع الأشجار الغليظة تلك الأشجار التي أعانت الناس على الحياة ، إذ كان حطبها يصلح وقوداً للتدفئة وللبناء ، وأوراقها علفاً للحيوانات ، والفاكهة غذاءً بشرياً وغياضها مراتع الرعي !

وهكذا تمّ نقب الارض بعد اقتلاع الأشجار بمعونة مهارة الانسان وقوة الحيوان إلا في بعض مناطق وهضبات ، ولكن معظم الغابات انتابها التقسيم والتقطيع . وقد دشنت الأديرة أول بادرة في حقل التنظيم الزراعي وكان هذا التنظيم يتناول الأراضي الواقعة على حدود المملكة ، وكان كل راهب يعمل من أربع الى ست ساعات في اليوم في قطع الاشجار وفلاحة الارض وجرّ المياه ، ثم يأتي المستوطنون ليحلّوا في جوار الأديرة بدافع حب السلامة وضمان الرزق والانتفاع من حركة البيع والشراء . وكان تأسيس دير وقتئذ بمثابة انشاء مستعمرة. والذي شرعت به رهبنة البنادكتين أنجزته «رهبنة سسترسيان» وما أن ظهر هؤلاء حتى كانت أغلبية الارض مأهولة وقيمتها مرتفعة ، فاضطروا الى الإقامة في أماكن غير مستصلحة : في وديان انكلترا الشمالية وفي ايكوس وعلى ضفاف بلدان الغال وفي المساحات الرملية التي تطوق خليج غسكونيا أو على الحدود العنصرية حيث صد الجرمان القوافل السلافية .

كان شارلمان قد تادى في فتوحاته حتى حدود الألب الى سال والى أعالي الدانوب ، واستأنف الفتح في القرن العاشر حتى أصبح في القرن الثاني عشر قوة لا تقاوم . وكان كلما اجتاح مكاناً شاد فيه حصناً واقتطعه أحد الامراء . وتعددت الاسقفيات ، والصوامع والأديرة ، ووزعت الأراضي على النبلاء الذين سعوا إلى إغراء فئة المستوطنين. وما أقبل للقرن الثالث عشر حتى كانت جرمانيا بأسرها حتى فستول السفلى . وغدت مناطق الغابات مزارع وكروماً وحزمة من القرى والمدن ثم اتسعت الحدود الى ما وراء الفستول ، وأطاح فرسان الجرمان وفرسان بورت كليف ببلاد ليفوني وبروسيا وليتانيا واستونيا ولم تعد هذه الحملة صوب الشرق إلا في عام ١٣٥٠ اذ استوعبت المدن الناشئة سكان المانيا ، وضعفت موارد الأرض أو أنها استهلكت لإطعام المواطنين. وفي العام ١٤١٠ حطمت بولونيا في معركة تاننبرج هذا الاكتساح الذي احتفظ بروسيا الشرقية حيث ظل يستثمر غابات الجنوب الكثيفة ، وقد أدى ارتداد الألمان

إلى قواعدهم تضخماً في المناطق القليلة السكان ، فملأ الفراغ وتحسنت الأساليب الزراعية وفتحت آفاق تجارية للجميع . وما لبث أن تعرقل السعي ، وقلت المكاسب ، وتدهورت الاسعار فهل يعود ذلك الى زيادة في الانتاج ، ووفرة العرض وقلة الطلب ؟

قد يكون ذلك ، وقد يكون أن التوسع والتبسط تطلبا رؤوس أموال ضخمة بحيث أصبح الملاك – حتى أرباب الأديرة – مديوناً وأسهم الإنقلاب السياسي في سوء الحال إذ ضعف نفوذ الكنيسة وسطوة الارستوقراطيين،وهبط دخلها المالي وانتزع قسم من الأراضي من أيديهم . وحل محلهم ملاك جديد هو بورجوازي أو وكيل ملك واسمه في ألمانيا جنكر [١] وفي انكلترا سكوير [٢] رجل لا ينشد التحرر من رواسب العصر الأوسط .

وفي هذا العهد حدث ثلاثة تطورات جسيمة في القطاع الزراعي : الحقول المفتوحة والممتدة ، الحقول المفتوحة وغير المحددة الصالحة للرعي ، الملكية العملية .

٦ ــ الجهد الفكري

ملذات المائدة ، صيد الطيور والفرائس أنقذا الأسياد من علة الضجر ، ولكن نساءهم كن ينشدن اللهو الذي أنعش الحياة الاجتماعية وشحذ قرائح الشعراء ، مما حمل المسيحية على الاعتراف بمساواة المرأة بالرجل . على أن الأدب الطالع لم يكن الأول في اللغات الوطنية . فقد بقيت الاغنيات الإيمانية وإن اختلفت لهجته وملاحم الأقدمين . إن القلب والنفس وهما عدة المرأة احتلا مكاناً مرموقاً في دنيا الغزل والنسيب .

وإذا كان أبطال الحروب تغنوا بمغامراتهم العسكرية فإن الشعراء نظموا

---

١ – Junker .

٢ – Squire .

القصائد لنساء العصر ، وأطلقوا لعواطفهم عنان الاسترسال والخيـــال وبعثوا عقداً عاطفية ومشاكل غرامية ،وفتحوا [كما كان عند العرب] سوق عكاظ توزع فيها الجوائز والألقاب . وبفضل هذه النهضة القلمية بعثت الأساطير القديمة على نغم جديد ووتيرة حديثة . وفي العام ١٢٠٠ جدد شاعر وفارس نمساوي كتابة تاريـــخ سيغفريد وبرنشيد [١] بأسلوب يروق لقراء عصره . وتفوق شعر نيبلنجن [٢] حتى أن الأمراء ولعوا بالنظم وبالغنـــاء : ألفونس الحكيم ، من قشتالة كان من أبرز الملوك الشعراء المغنين داخل القصور طبعـــاً وأشاع فنسسلاس [٣] هذه الآداب على طول ضفة الدانوب حتى مطالع القرن الرابع عشر . ومما لا شك فيه أن هـذا الذوق الأدبي كان حديثاً في الغرب . [إن الغرب ولا ريب تأثر بالشعر العربي ثم حوّل فيه وحوّر] .

وتألق نجم الأدب في القصة العاطفية ، وجمع بين الخيالات والحقائق الحاضرة والتقاليد القديمة الدينية ، فذاعت غراميات تريستان وايزولت ، وتداول الناس كتب دي غرال بشغف وهيام ، وأسماء تروى ، واشنباش وسواهما ممن أعلوا شأن الشعر في مدحهم أبطال غرال (يظن ان غرال اسم وعاء حوى دم المسيح) تشعبت أوضاع هذه الفترة وتنوعت ، وبينما كان أهالي جنوى يتاجرون بالعطور ولا سيما العنبر والفراء على ضفاف البحر الأسود ، وأهالي البندقية يتسوقون من سوريا ، والمعارض الكبيرة تقام على نمط المعارض السابقة والغرام يضرم البيان ، والفلاحون يعطون حدود مزارعهم الى قلب الغابات . وفي حـــين كان كل مواطن يعمل عمله ظهرت حركة غريبة مآلها أن معرض «لنديت» امتاز ببيع الأدوات المدرسية . ومعنى هذا أن الظمأ الى المعرفـــة في القرن الثالث عشر أصبح عظيماً وأنه في ازدياد واطراد ، وأنه بحاجـــة الى المزيد من الوسائل

---

١ — سيغفريد و برنشيد وهما روايتان غنائيتان مشهورتان .
٢ — Niebelungen .
٣ — أحد أمراء الجرمان .

والوسائط . فالمدارس التي كان يديرها الأساقفة نمت وارتقت ، وزحزح عنها كابوس الوصاية وعلى غرار بورجوازيي المدن ، طالب المعلمون والتلامذة أن يكون للمدارس ادارة مستقلة وشجعهم البابا ، فكانت جامعة باريس في العام ١٢٢١ .

وسادت الروح الوطنية في أوساط التعليم ، وتآخى الاستاذ والتلميذ ، وأقبل الطلاب من أنحاء القارة الى ارتشاف مناهل العلم تجمعهم اللغة اللاتينية . ولم يكن ثمة ميزة لجامعة على أخرى إلا من حيث التخصص . ففي جامعات ايطاليا كان المشترع رولنديرو يعلم القانون الروماني وتعاليم جستينيانوس التي عثر على نصوصها في مدينة بيزا في القرن الثاني عشر . واتسعت جامعات انكلترا واكسفورد وكمبريدج حتى ضاهت سعة المدن ، وحطم الرهبان الفرنسيسكان وصية مؤسسهم الذي كان يكره العرفان ، فأسسوا مدارس لعلم اللاهوت ، واتفقت ظروفهم المتواضعة وأحوالهم التعسة مع أحوال التلاميذ الذين كانوا هم أيضاً من الطبقة المدقعة . وقد طارت شهرة مدرسة الفرنسيسكان في اكسفورد الى أعلى القمم فأخرجت ثلاث نوابغ : روجه باكون [١] دنس سكوت [٢] واوكهام . وجارت اكسفورد جامعة باريس في الرقي وتعليم الآداب والفنون والحق الكنسي والعلوم اللاهوتية . ولكن لاهوت اكسفورد شرع يتحدى روما .

ان نشر آثار أرسطو في الغرب سيطر على الحركة الفكرية في القرن الثالث عشر وهز قواعد الجامعات وكان قد شرح لقرن خلا طبيب خليفة قرطبة وهو إبن سينا فلسفة ارسطو وانتشرت شروحه المترجمة انتشاراً واسعاً ، وأثارت جدلاً — الاصول والترجمات — بين فلاسفة المسيحية فانبرى عالمان في جامعة باريس الأول الماني القديس البير الكبير ، والثاني إيطالي القديس توما الأكويني يردان على آراء أرسطو وابن سينا فيأخذان للدين المسيحي ما يصلح

---

١ — عالم انكليزي يعزى اليه اختراعه بارود المدافع .
٢ — عالم في اللاهوت ناظر وحاور توما الأكويني .

أخذه من ذخائر أرسطو مع مراعاتها ان لا يمس الإيمان .

وتخصصت جامعة مونبليه بعلم الطب وجامعة تولوز التي أنشأتها البابوية صرفت جهودها لتكون أحد أعمدة الأرثوذكسية في بلاد ألبيجوى ، وأما جامعة نابولي فقد فتح أبوابها فردريك الثاني لاعداد صفوف الموظفين. وازدهرت في اسبانيا جامعة سالامنك ، وفي البرتغال أمر الملك « دونيس المنعتق » بإنشاء جامعة لشبونه التي حلت محلها جامعة كومبر ، وبفضل الالمان أعيد إحياء تقاليد أهالي كرولنجيا ، ولكن الجامعات لم تنشأ عندهم إلا في وقت متأخر ، ذلك ان عدم الاستقرار السياسي الذي خيم في ربوعهم أعاق قيام جامعة هايدلبرغ (١٣٨٦) وجامعة ليبزيغ (١٤٠٩) . ولكي يوحد بين الشعوب الجرمانية والشعوب السلافية أرسى شارل الرابع قواعد جامعة براغ (١٣٤٧) وقاده أرشيدوق النمسا في فيينا وملك بولونيا في فرصوفيا .

أما في الشرق فكان ثمة حواجز وسدود، فالفتوحات التركية حالت دون تقدم العمران ، وبعد ان انتصر الترك في كوسوفو[1] أخضعوا الصرب ثم البلغاريين ، وطوّقوا بيزنطة فوقعت في قبضتهم سنة ١٤٥٣ ، وفي جوار القديسة صوفيا في الاستانة التي تحوّلت الى جامع نهضت أربع مآذن تمجد الله الأوحد .

وعرفت بولونيا في مناطقها الشرقية فترات عظمة وعلاء ، وكانت قد تنصرت على أيدي البيزنطيين .

وفي القرن الرابع والقرن الخامس بنى كازمير الكبير وسلالة جاجلون صروح المجد لبلد عصري مثالي .

ولقد غدت كراكوفيا مركز جامعة أشرقت أنوار معرفتها في سماء شرق اوروبا ، ونشرت ثقافة غربية ، بينما كانت حكومة بولونيا تبني على أسس مؤقتة مبدأ حرية الفلاحين وحقهم في التملك . وهنا يبدأ الانفعال الاقليمي ، فدول اسبانيا المتحدة سنّت لنفسها نظاماً ديموقراطياً : بزوغ عصر جديد !

---

١ - في يوغوسلافيا .

وفي ذات الوقت أحيا دانت أليجياري الآداب الايطاليـة ولكنه ظلّ في ذهنية رجل القرون الوسطى بعكس خلفه بيترارك المعدود بطـــل البعث الى جانب جيوتو الذي كان يصور الرجال لا أشباه الرجال .

كانت عدوى النهضة والخلق قد تغلغلت في ايطاليا ، لأن فرنسا في محنـة ، ومثلها انكلترا وقواهما في استنزاف. ان رامي النبال الذي خلّده الأدباء كشهيد القديس سيباستيان وقد حكمت عليه الكنيسة ، انتصر على الشاعر وعلى الكاهن وعلى الفارس .

٧ ــ الوثبة الصوفية التعبدية

في عهد شارلمان قامت حركة : «سير اسبانيا » حول برشلونه ، وبعد نكبة رونسافو ، استولى الملك على بامبالون وهي نقطة انطلاق لاستعادة الثغور في شمال شبه الجزيرة وغربها. ووراء هذه السواحل في غاليسيا، مدينة كومبوستيل التي تضم كاتدرائيتها بقـــايا القديس يعقوب ، وهو مزار كان يجلب كل سنة مئات الالوف من الحجاج الذين كانوا يملأون الطرقات من باريس الى كلارمون الى الآرل، يغنون انشودة رولان ويحمسون المارة . بالاضافة الى رسوم وطوابع تحيي ذكراه [1].

في القرن الحادي عشر ارتفع في قبـــة كلوني جرس أحدثت هندسته دوياً وثورة. فاقتبس شكله وضخامته وقوته الف وخمسمائة مؤسسة رهبانية وحظيت اوروبا – مع دخول أغنية رولان الى دنيا الأدب – بضالتها في الفن الايطالي . على ان اوروبا لم تسلم من النفوذ الشرقي ، فضمّت تقـــاليد البحر المتوسط الى الثقافة الاوروبية . ففن البناء لم يكن قـد تطوّر كثيراً منذ عهـــد البنائين الكرولنجيين . وظلت كنيسة كلوني على رأس الهندسة الرائعة ، ولكن بنيت على جوانبها معـــاهد ومدارس وأديرة الى ان كانت كنيسة القديس بطرس في

١ – أسست فرنسا مدارس للآثار وللصناعات .

روما . وفي البرتغال وفي البلطيق ، ومن ايكوس الى صقلية سطع نجم هندسة محض اوروبية . فشادت رينانيا كاتدرائيات عديدة ، في تراف ووورمس وسبير ولاش . وعزز الفن النصوص المقدسة ، وفسّر معانيها الرمزية ، بتعبيرات واقعية ولا سيا بالتصوير والرسم .

وبعد ذلك طلع مجتمع آخر بروح جديدة . فصلاة التبريك توقفت عن مس الشعوب الحضرية ، إنه عصر الإحسان لا عصر المباخر ، ذاك الإحسان الذي كان يجده فرنسوا داسيز الذي عرض على البابا البريء الثالث ١٢ شكل رهبنة منها الاخوان القاصرون ، ومهمتهم جمع المال والوعظ وإلهاب المؤمنين . أما القديس دومينيك فكان في شغل شاغل بسبب صراعه مع الهرطقة . وقد أنجب الدومينيكيون توما الكويني أحد منارات اللاهوت الكاثوليكي . هذا وقد وزع القديس فرنسوا والقديس دومينيك مجهودهما على اوروبا ، الاول في ايطاليا وفرنسا والمانيا واسبانيا وانكلترا حتى المجر ، والثاني حتى بولونيا .

وعقب انهيار النفوذ الرهباني برز الطراز القوطي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر . وطُبّق الفن البيكاري والزخرفي في الهياكل والمعابد ، ورُفعت سدّة الهيكل الى أعالي الجدران . عندئذ كثر عدد الكنائس ، فكانت نوتردام دي باري ونوتردام اميان ورانس الخ ... إن الفن القوطي عظم أثره في أماكن محددة بأوروبا ، ولم ينل رواجاً أشبه برواج الفن الذي تقدمه ، إذ اعتبر من نتاج الفكر الفرنسي ، إلا ان انكلترا وفرنسا دانتا به على هواهما ، فركزتا الجرس الواحد في كنائسها وجهزتاها بنوافذ ذات القناطر المثلثة !

وفي يورك وفي والاس وغيرهما طبقت الفنون المختلفة ، وفي البلدان الاخرى اضطرب حبل الفن ، فهنا قوطي وهناك شيء آخر ، فكانت المظاهر المميزة للقرون الوسطى الاوروبية .

وبقدر ما كان الفن الايطالي يعبث بالأشكال الطبيعية كان الفنان القوطي يحترم هذه الأشكال . ففي نظر هذا الأخير ان المخلوقات الإلهية تعبر عن

تمجيدها الله باعتمادها الحقـــائق الملموسة وإجراء الأشياء الخارجية ، وهكذا استعيض عن رسوم الجدران بزجاج النوافذ، وأعطيت الأفضلية للأضواء، وكان المثال الحي لهـــذه الأفضلية ان ثمة كنيسة حوَت ألفيْ متر مربع من الزجاج المصور .

جاء الطراز القوطي من شمـــال فرنسا ، فاقتبست اوروبا جميع أنواعه . فطليطلة أخذت عن البورج، ولايون نقلت عن شارتر، وإيطاليا وحدها المتأثرة بالطراز البيزنطي عافت هذا الفن الحديث ولم ترجع اليه إلا مؤخراً وظلت غير راغبة فيه إلا قليـلاً . بعكس المانيا التي تبنّت كلمة دوم[1] والفن القوطي من غير تحفظ . وقـــد رأى القرن الثالث عشر كاتدرائيات ضخمة : نوتردام دي تراف ، ومعابد مربورج وكنيسة كولونيا ، على ان بناء هذه المعابد لم يتم إلا على أيدي أجيـــال متتالية من بيزنطية ورومانية وقوطية . فكاتدرائية القديس مرقص في البندقية شُرع ببنائها في القرن العاشر وأُنجز في القرن الخامس عشر ، وكاتدرائية ميلانو تمّت بأمر من نابليون ، وكاتدرائية كولونيا في عام ١٨٨٠ .

وثبة اخرى باطنية : الحروب الصليبية ، وهي على أهبـة العمل عندما يبدأ الزحف القائم على وحدة المصلحة الدينية وعلى تضامن الجماعات وتآلفها . بدأت الصليبية فوراً، وكأنها حقيقة حيّة ومنظمة ذات هدف ديني حوالي القرن الحادي عشر، انها وليدة تطور، ونتيجة فورة ارتجالية مبعثها الرغبة الجماعية ، مسلحة – كما ترمز الى ذلك صورة الآلهة – منذ الساعة الاولى . وهذا ما يوضح بجلاء ما فيها من خصائص وغرائب ، وما انطوت عليه من نفسية باطنية .

وإذا لم تتكون الصليبية قبل حوادث ١٠٩٥ فلا يعني انه لم يكن ثمـة بذور ونواة لعناصرها في نهـاية القرن الحادي عشر حيث اكتملت أسبابها الروحية .

تحاليل وتجربات ، وصور ، وتقـاليد طبعت في ضمائر الجماعات الغربية ، أثناء ألف سنة من الصلات المادية والروحية بين الشرق والغرب . كان قسطنطين

---

١ – أي القبة .

يرى في القدس مدينة المسيحيين المقدسة : اكتشاف مغارة المخلّص ، أعمدة الجلجلة ، قضية الصليب المقدس .

منذ القرن التاسع والدين يخطط ، والقبب ترتفع في الأراضي المقدسة ، ويصبح الشرق في نظر الغرب تاريخ الأرض المقدسة الغابر والحاضر . وكلما ازداد عدد الحجاج تضخم تجمعهم البشري ،وتعانقت الأغراض الفردية والأغراض الجماعية . وكانت زيارة اورشليم نهاية المصير الذي يطمع المؤمن فيه . ورسخ في العقول أن المتحاربين متى استشهدوا في الحروب ضد الأعداء ضمنت سلامتهم الأبدية . إن تاريخ الحج يبدأ في القرن الرابع قبل قضية الصليب المقدس ولم ينقطع في القرون التالية ،إذ كان مذهب تطهير النفس لدى الفرد ولدى الجماعات التي عدته خلاصاً للجميع ، وقد هددت الحوادث مرات قطع حبله بغية إعاقته ، فاعتزم الحجاج أن يجمعوا شملهم وأن يتسلحوا . وكان المناخ مؤاتياً لإجابة نداء البابا « اوربان الثاني » ولاسيما أن الوضع السياسي كان يحتم ايجاد تلهية خارجية .

ولم تكن الصليبية نظرياً في مطلع عهدها سوى مشروع نزيه عاري الهدف ، أعدته الكنيسة وبحق بهاجس تخوفها من تعاظم بأس الأتراك [1] المهدد أمن اوروبا بأسرها .

وكان الغرض الآخر إنقاذ قبر المسيح . وعند مجابهة الواقع ولدت في نفوس البعض أغراض دينية ، وبسط نفوذ البابوية التي غضت الطرف عن هذه الحملة . وهكذا ارتدت الصليبية ثوب الاستعمار الذي لبسه نبلاء الاقطاعية المطبوعون على القتال. وكان من جراء هذه الحملات إشعاع المدنية التي سطع نورها بين القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر في فرنسا أولاً ومن ثم في الغرب الاوروبي . وساعد تنقل الأسياد بين انكلترا وسواحل المتوسط النائية على توحيد اوروبا الفكري وعلى شد أواصر العرقية والقومية .

إن ايطاليا الجنوبية وانكلترا استعمرهما النورمانديون ، واسبانيا داست

---

١ – الأتراك التركان المعروفون بالسلاجقة .

أرضها حوافر خيول بورغونيا ، وسوريا وتراس وبيلوبونيز استخدمهـا بارونات فرنسا وايطاليا والمانيا مطية للعبور. كل هذه وقائع حسية كان لها نتائج عظيمة جنت البابوية أول ثمرة من النصر الذي أحرزته بفضل جنود الله المنضوين تحت لوائها. وبفضلهم ربحت النصرانية مواقع جديدة، هذه الديانة التي حزمت شعوب اوروبا في حزمة واحدة من أجل جهد مصوب ضد جماعة مختلطة من غير المؤمنين. وكانت الانظار تتجه الى كرمي البابوية ، أنظار المؤمنين بالقضية الاوروبيـة . وتنامى القوم ما يولد الحسد والتسابق على القيادات من نزاع خفت وطأته بسبب نشوء التبعات وتغلب الشعور بالقوة المعنوية حتى ولو لم تدعمها دائماً القوة المادية الكافية .

إن معاهدة وورمس [1] الموقعة في ٢٢ أيلول من العام ١١٢٢ لم تكن الوثيقة الحاسمة الخلاف ، ولكنها فصلت بين القطاع الروحي والقطـاع الزمني وعدّت الكنيسة هذا الفصل نصراً بقيها شر الوقوع في قبضة العلمانية ، مما أتاح لها ان تكمل إصلاحها الديني غير عابئة بمعارضة الملوك والأمراء . وحقاً دأبت في الاصلاح .

لقد أقسم الشعب اليمين المغلظة ، ووعظ العظات الحماسية ، وحركت مشاعرهم الدينية ، ورددت الفضائل الانجيلية وطلب اليه ان تتوفر ممارسة دينه الاول . فطاف عام ١٠٩٠ في المانيـا رهط من رهبان هيرشو ، وفي فرنسا تأسست الجمعيات على أيدي روبير دي سوليسم ، وبرونو دي كولونيا ، الخ... وتولّت البابوية الإشراف على هذه الحركة ، ولم يحدث التوجيه الجديد إلا على يد القديس برنار الذي كان البابا يدفعه ويشجعه . وفي عـام ١١٢٢ انتمت ١٩ مؤسسة الى الرهبنة الام ولم تمضِ ثلاثون سنة حتى كانت هـذه الرهبنة تعد ٣٥٠ ديراً تؤيد الكرسي البابوي .

لم تطل حملة الصليبيين طويلا حتى بدأ خلف فرسان فرنسا والمانيا وإيطاليا

---

١ – الخاصة بموقف « لوتر » من الامبراطورية الالمانية .

فرسان التجارة والبحارة والأسلحة الذين استهوتهم الأسواق المشرعة . وقد تمركزوا على طول سواحل سوريا وانطاكية ويافا وفي المدن الداخلية الرئيسية. على ان طرق آسيا لم تقع في أيديهم ولم يقبضوا إلا على زمـام التصريف . إن التجارة تجلب التجارة ، فكان على التجار ان يضاعفوا نشاطهم المغمور بركود ووقوف طارئين، مما اضطرهم الى تبديل جهازهم الاجتماعي، إذ اتضح ان وسائل الاقطاعيين عاجزة عن تغطية حاجات عالم يمتــد ويتسع . ولم يكن في وسع الفريقين الاستغناء عن المنتجات الشرقية إلا مكرهين . وقد استطاع الفاتحون الترك والعرب ان يضعوا القضبان بين عجلة التجارة المتوسطية الأمر الذي أفضى الى شلّ الصناعة الاوروبية . ووجد الصليبيون في مدن بيزا وجنوى والبندقية ميلاً الى استثمار القطاعات التي هيأتها الانتصارات الحربية مسرحاً هـانئاً ، فتأسست شركات تجارية قوية في هذه المدن سبيلاً للحصول على ثروات المشرق ، وبفضل رؤوس أموالهم الكبيرة استطاعوا ان يسيطروا على معظم أسواق البحر المتوسط الشرقي . فمن مضيق جبل طارق الى دلتـا النيل لم يخلُ مرفأ او مكان من التجار الايطاليين المتحكمين في التجارة .

على ان استئناف المواصلات المتوسطية من لدن الغربيين لم يكن ممكناً لو لم تنهض اوروبا الغربية الى مماشاة التيار ، ولو لم تحصل على المواد الخـام المجلوبة من المشرق اللازمة لصناعاتها واستهلاكها المزيد من الملح. وكان لاستتباب الهدوء النسبي أثره في إعداد جو نشاط متصاعد . وبدلاً من اكتفاء الانتاج بصنع مـا تفرضه قوة المستهلكين المحليين الشرائية عمدوا الى إنتاج مقادير لمستهلكين أوفر عدداً . لذلك فكروا بالتخصص في الانتاج .

٨ ـــ وجه اوروبي جديد

غداة الاحتفال بالذبائح المقدسة في صقلية (٣٠ آذار سنة ١٢٨٢) وبعـد وفاة شارل دانجو (٦ كانون الثاني عام ١٢٨٥) عمت الفوضى. وتجاه شرق يغزوه

المغول غزواً مجرداً عن الحضارة وعن الوعي ، راحت اوروبا تبحث في سجلات الماضي عن قواها المعنوية. ولكن اوروبا كانت وقتئذ تعيش في جو الاضطرابات والقلاقل. وكان خليفة القديس لويس فيليب الشجاع قد توفي ومثله ملك صقلية. وكان البابا مارتن الرابع قد حشر البابوية في موقف حرج،ومن الصدف أن بطل صقلية هو الآخر لاقى حتفه ، وامبراطور بيزنطة بات من الأموات مخلفاً لأندرونيك خلفه امبراطورية في حالة الاحتضار. ثم ان غياب شارل دانجو حمل ملك المانيا على الالتفات لجهة ايطاليا التي كانت قد خطبت ود سلفائها ، وكان المستقبل يبتسم بوجه الدول (فرنسا مثلا) التي أحسنت اختيار نظام ملكي متين الجوانب . وكان ادوارد الأول ملك انكلترا ورودولف همبورغ يسعيان لتعزيز سلطانها من دون إغضاب رعاياهما . ثم تجاوبت البلدان الاوروبية والدساتير الحرة المعلنة ، سواء في المجر او في البلدان السكندينافية حتى ان الأمراء احتفاظاً بنذر من سلطتهم تنازلوا عن حقوق أوسع .

وفي فرنسا طالبت البورجوازية بحقوق أوسع . وكانت الاضطرابات الاجتماعية في فرنسا (القرن الرابع عشر) وفي انكلترا وايطاليا في فوهة الانفجار . وتفشى القلق في المحافل الأدبية والفكرية توطئة لمؤتمرات القرن السادس عشر ومجامعه !

ثلاثة قرون غاصة بالحملات والمغامرات كانت كافية لخلق وجه اوروبي جديد . فالرجال العائدون من فلسطين عادوا بنظرة تختلف عن نظرتهم الأولى الى الأشياء ، فقد اتسعت آفاقهم ، وحطم الصليبيون أركان الاقطاعية ، وتنفست اوروبا الصعداء بعد هدوء العواصف الهوجاء التي أثارها الأسياد والنبلاء فانصرفت الى ميدان الاقتصاد ، وعزل الملوك الموظفين الأشراف واستعانوا ببطانة من الاداريين ، وتولى القضاة الأحكام ، وصار للاتفاقات الحبية قوة مكاسب تفوق منافع الحروب،وزالت الحصون عن القصور لتبقى على المدن أعني ان السلطة هي الحامية .

في عام ١٢٤٥ أوفد البابا الراهب الفرنسيسكاني جان كاربن الى كارا كوروم[١] وفي عام ١٢٥٤ أعقبه لويس التاسع بفرنسيسكاني الى عاصمة المغول . فأطلّ على العالم فجر الانتعاش خصوصاً وان عودة الرحالة ماركوبولو من الصين دلّت على ان هناك نظريات في التقنية لا تزال مجهولة عند الاوروبيين منها انه شاهد كيف يزرعون البهارات . ولم تذهب إرشاداته عبثاً إذ بوشر في القرن الرابع عشر استعمال الفحم الحجري وبارود المدافع . وقد تضاعف عطاء الحيوانات المكدونة بفضل رسن الرقبة . وفي عام ١١٠٥ رُؤيت الطواحين تُدار بالهواء .

في حرب المئة سنة ، أخذت العقائد التي كانت تهب رياحها في فرنسا وفي انكلترا تتنكر للمسيحية القديمة ، بينما كانت اسبانيا تعتلي سلم المجد بسبب اقتران فرديناند داراغون بايزابيل دي كستيل وبسبب استرجاع غرناطة من جيوش عرب المغرب . كانت القرون الوسطى في فترة الغياب والشلل ، وكانت الهمم والإرادات تتراخى . إنها عصور النقى التصوفي العام ، زمن العداء للسامية ، ولهرطقة جان هوس ، وبرهة استظهار سداد الرأي على الدجل والشعوذة ، وعلى التخشع الماكر البارز في الرسم والنحت . إن المطامع بالممنوع او المستحيل طلقت الافكار . وهنا يتألق كوكب الرسم بالزيت وتسري موجة هاجس الموت في نفوس الاوروبيين بسرعة قصوى ، وتتساوى الى حد ما نزعات الفن ، ويبلغ داود بوتس في لوحته « الديمونة الأخيرة » درجة الغيبوبة والإغماء . وبعد ان صقل الفن طباعهم وهدأ روعهم عاد ليخلق البلبلة والمضاعفات في أشكاله . وتصبح روان عاصمة الفن القوطي . وفي فرنسا ، وفي اسبانيا والبرتغال يتزاوج الفن البيكاري وبصمات الفن العربي ، وتشير البنايات العامة في بروكسيل الى ان عظمة البورجوازي كبيرة لا تقلّ عن عظمة الخالق !

---

١ – جبال بآسيا .

٢ انبثاق فجر الصناعة

تطور سريع ، بدأت طلائعه في القرون الوسطى ، واستعجلت عجلته في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حتى احتار المؤرخون في تصنيفه وربطه بالزمن : هل هو من مرحلة القديم او من مرحلة الجديد ؟ وقد علقت به أشياء من القرون الوسطى تفكيراً وشرائع وإحساساً ، فاستقبلته الانسانية بالغبطة لأنه أعطى الانسان شخصية فذة رائعة ، وصرفه عن نشدان المستحيل الصعب والقناعة بتفهم الطبيعة الضامنة له السيادة ، لذلك ولى وجهه لا شطر الخالق بل شطر الخلائق . فالاوروبيون لم يأخذوا بقشور القرون الغابرة وإنما أخذوا عنها الحالات التي تفك قيودهم منها[1]. وخاضوا غمار التجارة البحرية والخارجية تسحرهم المعادن الثمينة ، والأرباح الكبيرة ، وتعاظم الدولة والفرد ، هذا وقد عظم شأن رأس المال ، رأس المال التجاري ومن ثم رأس المال الصناعي (في انكلترا منذ النصف الاول من القرن السابع عشر) وطالب الفرد بالحرية

١ – لم يقم الكاثوليك ولا البروتستانت بثورة ضد الدين ولم ينكروا جوهره ولا جحدوا بالله وإنما نادوا بديانة يكونون أحراراً في ممارسة طقوسها .

الشخصية، بالنسبة الى الاحتكارات والأسياد والإقطاعيات، ورفض الاعتبارات الدينيـة الموضوعة من قبل الفرد او من قبل الجمـاعة بقصد إقرار الاقتصاد الحكومي الرسمي . هـذا وان نجاح البورجوازية كان مرتبطاً بنجاح الدولة الملكية التي نصّبت نفسها حكماً بين الأشراف والبورجوازيين .

وهكذا أصبح للتجار وللدولة مصالح مشتركة. فللتجار وحدهم حق استيراد السلع التي تحتـاج اليها الدولة التي عليها ان تخضع للسياسة الاقتصادية التي يضعها هؤلاء .

واعتُبرت الدولة وحدة اقتصادية تقضي مصلحتها بجمع المعادن الثمينـة عن طريق ميزان تجاري ايجابي ، وبواسطة قوانين تلائم أعمال التجـار . والدولة وحدها تستطيع أن تحرر البورجوازي الرأسمالي من العوائق والحواجز الموروثة من النظام القديم ، وأن تضمن له مستوى اجتماعياً أعلى الى جانب امتيـازات رسّخت شخصية الفرد في حياة الأمم ، وقامت مقام الجمهورية المسيحيـة التي يحكمها البابا والامبراطور مجموعـة دول مستقلة ومتساوية في الحقوق مما أحدث توازناً في اوروبا . وأخذت الحكومات تمارس الحروب من أجـل السيطرة ، واستبدل بفكرة الامبراطورية التسلط والامبريالية الاسبانيـة والنمساوية والفرنسية . غير أن التكتلات والمحالفات حالت دون اتساع رقعـة الاستعمار والاستيلاء . لقد كانت هذه الدول تتحارب فوق جميع سطوح البحار وأعماقها، فلا عجب إذا كان تاريخ اوروبا صورة مصغرة عما كان يجري وراء البحار .

١ ــ نهاية النفسية الصليبية

إن لفظة التفوق الاسباني تعني تاريخ اوروبا السياسي في النصف الثـاني من القرن السادس عشر . قد يكون هذا القول للدليل البيـاني ليس إلا . ولكن لا نكران أن التفوق الاسباني كان حقيقة راهنة. فهو ذو أثر في ايطاليا، ولاسيا على أيدي اليسوعيين في روما ، وفي جميع المقاطعات الايطالية . إن اسبانيـا

وحدها كافحت هجمات الملحـــدين في الغرب . ولم يكن من الخير أن نستنزف قواها في صراع طائفي ، فاختارت أحد أبنائهـــا ليؤلف ضرباً من الجيش (ميليشيا) يطوف البلدان حاثاً الشعوب في ساحات الحرب من أجل الايمـان . فكان هذا الابن اغناطيوس دي لويولا وأعوانه ، وقـــد شن على عرب المغرب حرباً ضروساً وعزز قوة الجيوش الاسبانيـــة . فهل كان يتوخى أن يصبغ الكنيسة باللون الاسباني بريشة اليسوعيين ؟ فكانت النتيجـــة أن الكنيسة اتسمت بالطابع الإيطالي إذ ان مجمع « ترانت » هو الذي وجّه الكنيسة الوجهة الجديدة، وكان من الطبيعي ان تكون الكنيسة لاتينية وهي المنسلخة عن البلاد الجرمانية والسلافية بمقتضى النظام الإصلاحي ، وأن تكون قيادتها بيـد رجل إيطالي (منـــذ ١٥٢٣ كان الباباوات جميعاً من الطليان) وأن تكون أكثرية أعضائها إيطاليين حتى وروحها إيطالية . على ان جمعية اليسوعيين الاسبانية بمؤسسيها وجذوعها أصبحت فيما بعد جمعية عالمية بمـا انضمّ اليها من أعضاء شأن جميع المنظمات الاكليريكية . وذهبت الى أبعد من هـذا ، إذ كانت تلتمس من روما الموافقة على أعمالها ، ودروع التثبيت ، ثم أعلنت نفسها جمعيـة رومانية رسولية ، وناضلت ضد فيليب الثاني [١] في سبيل إعلان روما السلطة المطلقة .

لقـــد جال اليسوعيون وصالوا في البلدان الملحدة ، فكافحوا وعلّموا ، وعيّنوا حيثما استطاعوا – النمسا وبولونيا – مستشارين في بلاط الملوك ، يبشرون بمحاربة الإلحاد ، وكانوا – من الحدود التي بين العالم الكاثوليكي والعالم الداخل ضمن منـاطق الاصلاح – منتشرين جنوداً يضيقون الخنـــاق على خصومهم . فشحذوا الهمم والجهود للدفاع عن أنفسهم وعن المسيحية المحاربة ، وضد تبسط أهـل الإصلاح ، وبسط نفوذ الدين الصحيح ، وبذلك صرفوا النظر عن الخطر الاسلامي ، وطلقوا الفكرة الصليبية .

---

١ – ابن شارلكان وملك اسبانيـــا الكثير التعلق بالدين الكاثوليكي ، وهو صاحب الاسطول (ارمادا) الذي حطمته العواصف .

لقد سبّب الاصلاح [1] تفتت المجمع المسيحي ، وصارت المسيحية مجرد كلمة إلا في علاقاتها مع الاسلام . وتوزع المسيحيون في الدول ، شعوباً يدفعهم تنازع البقاء وسنة الحياة الى مظاهرات إجماعية على غرار تلك التي اتخذت في القرن التاسع عشر اسم (الوطنية) . إن هذه الوطنية ردد صداها في كل مجال !

١) لم تعد اللغة اللاتينية لغة جامعة . ففي عام ١٥٣٦ أحدث شارلكان أزمة مدوية عندما ألقى خطاباً بالاسبانية أمام مجمع كرادلة يرئسه البابا في روما. لقد كانت كل دولة ترغب في ان يكون لها لغة خاصة !

٢) لقد خضع التشريع التجاري لمبدأ الاكتفاء الذاتي ، فصار على التجار الأجانب أن يشتروا بالمال الذي يبيعون به سلعهم وهي من إنتاج البلاد الوطني. وعلى التجار الانكليز أن يستخدموا المراكب الانكليزية وأسبانيا تمنع خروج الذهب والفضة .

٣) أجل إن القرون الوسطى عرفت المبادىء الحقوقية المطبقة في القانون الدولي ولكن القانون المكتوب لم يحل محل قانون العرف إلا في القرن السادس عشر [2] وكان نظام التسلسل الواقع تحت حكم البابا والإمبراطور لا يترك الحرية الكافية لكي تسن الدول أنظمة لجميع رعاياها ولم يتسن لهذه الدول ضم أبنائها تحت لوائها إلا عندما نزعت من الرؤوس نظرية أن المسيحية وحدة . لقد ظلوا يتحدثون – بحكم العادة والاستمرار – عن الجمهورية المسيحية ولكن من غير أن يؤمنوا بها .

٤) وتبدل سير العلاقات بين الدول مما اضطر الى تبديل آلات الحرب والدبلوماسية : جيوش مستدعة متأهبة وسفراء مقيمون دائماً .

٥) وفي نظر الأزمنة الأخيرة كانت مسيحية القرون الوسطى تشكل وحدة

---

١ – يقصد بالاصلاح تخلي البابوية عن نصف اوروبا في القرن السادس عشر ووقوعها تحت نفوذ لوثر ومذهبه البروتستانتي .

٢ – كانت قوانين الملاحة مرعية الاجراء في القرون الوسطى .

اقتصادية ، والحدود السياسية غير متجانسة والحدود الجمركية ، فالنظـــام الجمركي الموحد مع تعرفات مختلفة هو صنيعة القرن السادس عشر ، وبينما كانت الضرائب تدابير أملتهـــا الحاجة الملحة أصبحت سياسة اقتصادية ، يلجأ الى مرونتها في الظروف الحرجة .

لقد الغيت امتيازات التجار وأفسح المجـال لاتفاقات ثنائية ومعاهدات دولية ، واحتلت شؤون التجارة الصدارة في العلاقات الدولية ، إنه عهـــد المعاهدات التجارية .

ظل جانب من الوحدة المسيحية صامداً هو وحدة التعليم إذ كانت النخبـة المثقفة في كل بلد ترشف المعرفـــة والثقافة من ينبوع واحد ، فيغشى الأبناء الجامعات الواحدة تلو الأخرى ولا يشعرون بوحشة وغربة مـا دام اللسان واحداً : اللاتينية !

ولما راح الألماني اسكندر دي روس يوزع المهام القدسية للبابوية ولألمانيا مهام الامبراطورية ، ولفرنسا المعرفة ، كان يضمر أنه لا مندوحة عن نهضة تعليمية بركانية موحدة لهـــا قوة السلطة الزمنية والروحية ودلّ باصبعه على جامعة باريس ! وفي أوائل القرن الخامس عشر صرفت العناية الى اعتبـــار الجامعات مؤســات وطنية ، ويصادف هذا الاعتنــاء في وقت تطور المجتمع الاوروبي وإنشاء دول وطنية .

لقد نمت في الفرد عاطفة الاستقلال ، وشعر بأنــه جدير بها وأن كرامته جزء من هذه الحرية . وكان نفوذ الكرسي البـابوي آخذاً بالشحوب ولا سيا في البلدان التى تناولها الإصلاح والتي وقعت جامعاتها تحت ادارة الدولة وإشرافها . حتى أن بعض الدول (جنيف ومربورغ مثلا) أنشأت جامعات لتخدم سياسة الدولة .

على أن التيار الوطني وإن بلغ الأوج لم يضع اوروبا في قفص مقفل لا تتسرب منه المجاري الفكرية مثلما قفل النظـــام الجمركي الأبواب بين دولة وأخرى . إن العادات التي تعود إلى آلاف السنين لا تزول فجأة واللغة اللاتينية وهي لغـــة

التعليم ظلت لغة الثقافة وعصب هذا الائتلاف. وظلت العلاقات قائمة بين الدول، ومثلها التبادل، والصلات الثقافية.

إن المدنية والثقافة الإيطاليتين مدتا رواقها طويلا. وبينما كانت الجيوش الاسبانية والبرتغالية تكتسح القارات والأبحار، كانت إيطاليا بسلاح الروح تبسط امبراطوريتها على اوروبا القديمة.

لم تكن جامعة روما وحدها مركز إشعاع فكري بل كان هناك جامعة «بادو» التي يقصدها الطلاب الأجانب وجامعة بولونيا التي كانت محط رحال علماء القانون من البلدان جميعاً. وحاولت الكنيسة أن تقلم أظافر هذه الجامعات كلما تعارضت تعاليمها والإيمان مما أقصى عنها العناصر الألمانية ومع هذا بقي النفوذ الإيطالي سائداً واستمرت الدول تعتبر ايطاليا الأمة المختارة تأخذ عنها النصائح والنماذج.

ولم يحجب الإشعاع الإيطالي الثقافة الفرنسية، ولم تقع بينهما منافسة لأن فرنسا كانت قد أسرعت الى السير في ركاب المدرسة الايطالية.

إن الاصلاح الذي وضعه كلفن طمس اصلاح لوثر وتفوق عليه في مكان تلاقيهما. واقترن الامتداد الكلفني بامتداد الفكر الفرنسي وتصاحبا، وما عدا الكتلة الجرمانية يصح القول أن المذهب الكلفني عم جميع أنحاء أوروبا التي وقعت في حظيرة الاصلاح.

أما انكلترا فانها اختارت إصلاحاً من نوع آخر لا هو تابع للوثر ولا لكلفن، نسبته الى اصلاح هنري الثامن المعدل باصلاح اليصابات، وحاربت بريطانيا الإلحاد ولم تنكر أنها من دعاة الانشقاق.

بين ايطاليا المتربعة على عرش الزعامة وفرنسا السائرة بخطى سريعة نحو التوسع، كانت اسبانيا تطلع على العالم بمجدها وعزها، من غير أن تحدثها نفسها بالصعود الى مقام يتناسب وشجاعة فرسانها وبطشها العسكري وإخلاصها وإيمانها! وكانت تشترك بالحياة الدولية ولكنها كانت تأخذ أكثر مما تعطي.

أن جامعاتها اقتصرت على طلاب اسبانيا وجوارها ، ولم يكن لتعليمها الشأن المعروف عالميا ، ولم تسطع أقلام كتابها سطوع أقلام كتاب فرنسا وايطاليا الذين اجتازت شهرتهم الربوع الشرقية .

على أن انكلترا كانت تميل الى اسبانيا ، فعقدت معهـا القروض وأوحى المسرح الاسباني المواضيع لشكسبير وأخصب خياله وعبقريته !

٢ ـ الموت ، ومعناه الانساني

حوالي ١٤٥٠ اكتشفت في اوروبا وعلى الأخص في البلدان الشمالية مخطوطات غريبة لا تختلف كثيراً عن تلك التي وجدت قبلاً من المخطوطات التقليدية ، إلا بكونها طبعت بعدئذ على الورق بواسطة حروف مطبعية . فهذه الكتب كان من شأنها أن أحدثت تغييراً عميقاً في العادات وفي شروط عمل القارئين في ذاك العهد ، أكانوا كهنة أم علمانيين . كان العالم متشوقاً الى هذه المؤلفات ، التي ولدت في مرحلة من مراحل الخلق والابتداع والاختراع التي ترافق كل حضارة مكتوب لها الحياة . وقد جاء هذا الاستنباط في أعقاب استنباط آخر هز الكون ، أعني بارود المدفع وأسلحة الرماية والاصابة التي طرب لها القرن الخامس عشر ، انها سبقت عصر بطليموس ، ولحقت بعالم القديس توما الاكويني وتقدمت عهد الإبحار الجريء الذي قاد الفاتحين الاوروبيين منذ ١٩٤٢ الى قارات مجهولة والى بلدان نائية حملوا اليها مصابيح المعرفة والإثراء . إن هذه المؤلفات أعطت ثمارها قبل أن يتوصل الانسان الغربي الى ايجاد مدى حيوي لراحته وهنائه ، وقبل أن تبين حسابات ذاك الكاهن الفلكي ما ينطوي عليه نظام الأرض والفلك من خبايا . والخلاصة أن الكتاب كان عنصر انقلاب خطير ، ولم يكن عملاً تقنياً فحسب بل كان آلة فعالة لحصر التفكير البشري الفردي في دائرة التأمل والبحث ونقل الانتاج العقلي من السلف الى الخلف لتنمية الاكتشافات وتسهيل تتبعها وإصلاح فسادها .

فكم من الوقت لمع نجم هذا الاكتشاف ؟

إنه بدأ حوالي نصف القرن الخامس عشر في مناخ البلبلة الأدبية والاقتصادية والاجتماعية التي اطلق عليها «ميشليه» لقب البعث واستمر الى عهد بلبلة أخرى مليء بالثورات السياسية ، عبر أزمات اقتصادية واجتماعية ، تلتهــا ثورات في الفن والأدب. وفي هذا الحين ظهرت الرومانطيقية الى جانب الحركة العمالية الصناعية التي حزمت أمرهـــا ، وإزاء مجتمع من النخبة يتأهب لإخلاء الساحة لمجتمع الجماهير وفي ظلال الكتاب برزت الصحافة !

٣٥ ألف مطبوعة مختلفـــة طبعت بين عامي ١٤٥٠ و ١٥٠٠ ووصلت الى يومنا هذا ، تتضمن نحواً من عشرة الى خمسة عشر ألف نص ، فإذا حسبنا أن كل مطبوعة كانت تصدر ٥٠٠ نسخة اتضح لنا أن عشرين مليون نسخة طبعت قبل عام ١٥٠٠ وهو رقم ضخم بالنسبة الى عدد سكان اوروبا وقتئذٍ (مئـــة مليون نسمة في البلدان التي نشرت فيها هذه المنشورات) . وكان ٧٧ ٪ من الكتب باللغة اللاتينية ، ٧ ٪ بالايطالية ، ٦ ٪ بالألمانية ، ٥ ٪ بالفرنسية. ومنها ٣٠ ٪ كتب أدبية ، و ٤٥ ٪ كتب دينية ، و ١٠ ٪ كتب حقوقية ، و ١٠ ٪ كتب علمية .

ثم عمدوا الى تعميم الكتاب المقدس على أكبر عدد من قراء اللاتينية واللغات العامية ، ونشره في أوساط الطلاب والمعلمين ، وأساتذة الجامعات ، ككتـاب تعليم وصلاة .

هذه كانت مهمة المطابع حينذاك . إنها ساعدت على اتقان اللغة اللاتينية ، وعلى مطالعة المؤلفين الأقدمين وإشاعة روح الإنسانية الإيطالية .

في ذاك الوقت حدث انقلاب آخر خطير ، فالموت السماوي المتجـــه نحو الأعالي بباب مشرع يمر به الانسان بدون عناء تقلص من الذهن أمـــام موت إنساني يفهمه العقل . فمنذ القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر طلع أدب علماني ينعي الموت ويعده فاجعة من الفواجع، فالحزن على الميت كبر وعظم،

وارتفع جدار عال بين الموت السماوي والموت الجسدي، والجثمان الذي كان عند المسيحيين مادة تأمل وتضرع صار موضوع رهبة وجزع. إن شبح الموت يرفرف فوق الرؤوس، ويتلاعب بمعتقدات القوم الروحية، الى درجة الانعتاق والتحرر المطلقين .

تناقض بين موتين ، ونزاع على تفسيرهما ، فالانسان عرف أن الحدود التي تفصل الحي عن الميت لا يمكن تخطيها ، وهذا مخالف لتعاليم الدين .

هذا هو الموت العلماني ، ان الخلود تزيّا بزي جديد وطرحت قضية علاقة الانسان بربه ومسألة فناء الجسد والأمل بحياة أبدية . إن الموت أضحى الدافع الأكبر الذي يدفع بالإنسان الى الدوام أي الى الحياة .

٣ ـــ الانسانية ، المذهب والفلسفة

إن المذهب الإنساني كما شرحه «اوغسطس رينوده » نظرية ترمي الى البحث والحياة من دون أن تخفض من قدر الانسان ومن عمله الفردي أو الجماعي ثم هي رفض كل فكرة متحجرفة، ثم رؤية الضعف والشقاء في المجتمع، والاشادة بعظمة العبقرية البشرية ، وإطراء اكتشافاتها العلمية والفنية والأدبية ، وتفضيل اللين على العنف ، وحمل الانسان على تهذيب علاقته بأخيه .

والفلسفة الانسانية بمفهومها هنا تحتاج الى جهد ثقافي ، والى علم متواصل يشمل البشر والعالم ، وهي تضع قواعد الآداب والأخلاق ، الى جانب وضعها قواعد الحقوق ، وكل هذا يؤول الى السياسة . هذه هي عبقرية البعث ، انها الأدب العصري !

كان يظن أتباع بترارك أن قضايا المعرفة والحياة والفن والتوق الى حل مشكلاتها قد ضاع معناها في مطويات القرون الوسطى . وان العصور القديمة لم تفتأ تعمل في سبيل الانسانية ،بعكس أهالي القرن الخامس عشر والسادس عشر الذين كان ينبئهم شعورهم بأن العصور الوسطى لم تكن انسانية كلياً ولا جزئياً . ومن أجل إعادة

ربط التيار المقطوع بالماضي انقلبوا رواداً عالميين لكشف العرفان البشري الذي قامت عليه تنشئة المواطن قديماً والذي رجوا منه أداة إصلاح أدبي وخلقي في الدين المسيحي .

إن بعث القيم الخلقية المندثرة معناه في المجـــال العلمي الاعتراف بتحقيقات ليونار دي فنشي[١] ، وبأدلة كوبرنيك[٢] وفيزال[٣] وبراهينهما ، ومنشأ العـلم الوضعي وبعث هذه القيم معناه في المجال الفلسفي استرجاع الحكمة الضائعة .

لقد عاشت مبادىء الحزم وثبت الجنان والشجاعة ، والشهوانية والتجريدية بما فيها من الحكمة العملية والحكمة الفلسفية ، فضاع الانسان في مهـاوي الحياة ومجاهل مصير الأشياء ... ولم تنب فكرة المواطنين عن فكرة الرعـايا ، ولا فكرة الوطن عن فكرة الاخلاص للسلالة الحاكمة ، ولا فكرة التعاقد الحر عن فكرة التبعية الموروثة .

جهد نهض على فعل إيمان بقدرة النفس البشرية ، يكاد يتعارض وتشاؤم الكنيسة التقليدي . إن التقييم المسيحي للعـالم وللرجال يتراءى و كأنه حكم على البشرية الموبوءة بالخطيئة الأصلية ، او كأنه جام غضب الأجيال عليها . وهـذا الكابوس يكفي لحل المشكلات التي تعترض طريق الانسان في علاقته بالله وبالدنيا وبالآخرين . وليس لغير هذا الكابوس شأن ، إن معرفته خيلاء وغطرسة[٤] ، فالتشاؤم المسيحي يحجبه الطبيعة وكل ما تلده حتى العبقرية البشرية بقوة خفيـة فائقة الطبيعة تتحكم بها ، تهلكها او تحييها ، تجحدها او تعترف بها .

---

١ – فنـان من مدينة فلورنسا ، جمع الأدب والفلسفة والتصوير وكاد ينافس ميكال انج ، ورافائيل ، واضع صورة الجوكندا .

٢ – صاحب نظرية دوران الارض حول نفسها وحول الشمس .

٣ – عالم امتاز بتشريح الجسم وبضعه .

٤ – إن الأجسام والأزل والنجوم والارض والممالك لا توازي حفنة من الروح . «باسكال» .

أما الإنسانية فهي بعكس مـا تقدم تؤمن بحنان الطبيعة وعطفها ، وتقبل عطاء العـــالم وترتاح اليه . إن القدرة الانسانية وآدابها هي التي تعطي تفاؤل الموسوعة [١] ، وتفاؤل « غوته » والشجاعة لرجال الثورة ، والنجاح للمدارس الاجتماعية التي أكملت نقصها الشرائع الطبيعية والتي وثقت من نفسها في الغـــد وجاءت بإصلاحات لا تحصى .

وُلد عـلم الاجتماع وعـلم اللاهوت الأدبي ووُلدت السياسة ثائرة على التشاؤم المسيحي ، مرة تتجاهله ومرة تتنكره وطوراً تحاربه !

على ان تاريخ النفس والعقل البشريين لا ينحصر في هـــذا الجدل . فالذين يتهمون المعتقـد المسيحي بأنه أسير التشاؤم ، قاطع الرجاء من الطبيعة البشرية متأثرون بآراء معـلمي الاصلاح وبالخوارج الانكليز وبطغمة الجانسينست [٢] . إن لوثر يحكم على جميع أعمـال الانسان ، وعلى العقل الانساني ، وعلى اللاهوت الانساني ، انه يتبنى تبشير القديس بولس – مع المبـــالغة به – الذي يثور على كبرياء المعرفة الكافرة ، وعلى الفلسفة والثقـافة وحضارة الملحدين . فحسب رأيه ليس للخلاص سوى طريق واحد : بغض جميع الاعمال الانسانية ، الاعتماد على فداء المسيح وحده ؛ لذلك يكره الانسانية ويلعن ارازم [٣] . ومثـــله كلفن الذي – وإن كان مديناً لإنسانية ارازم – كره كبرياء الانسان ، وفي كرهه هذا لم يكن شيء يفصله عن جانسـينيوس وعن القديس سيران وانطوان آرنو .
على ان لوثر وكلفن وجانسينيوس والقديس سيران وارنو لم يكونوا وحدهم شهود المسيحية . فالانسانية لم تنحصر في بور رويال [٤] ، بل ظهرت انسانية

---

١ – مجموعة مقالات صنفت على طريق المعجم كتب بحوثها مفكرون وفلاسفة رهيأت الأفكار لخلق تيار فكري ثائر .

٢ – أنصار مذهب الغفران والحتمية . وهي بدعة الجنسينية تخالف تعاليم الكنيسة بما خص الخطيئة والنعم (بكسر النون وفتح العين) .

٣ – Erasme زعيم الانسانية .

٤ – معهد ودير .

صوفية جاءت تكمل التشاؤم . فقد كتبت القديسة تريزيا : « ما من شيء يضاهي جمال النفس وقدرتها المتفوقة . وهذه النفس التي حباها الله الكرامة والعزة يجب ان نعلمها على الارض الشعور بالكرامة لا ان نضعفها » . ثم تقول القديسة تريزيا : « لا يحتاج المرء الى أكثر من التواضع ! على انه من الخطأ الوقوف عند عمق الشقاء ، والتيه في بيادي المسكنة ومعرفة ذواتنا ، إن مـــا يكتشف من أسرار تفوق إدراكنا يرمي بي في خضم قلق وخوف لذيذين ! » .

وإن هذه الامثولة التي تناولتها القديسة من تقاليد عريقة احتضنها علماء الروح الفرنسيون منذ النصف الأول من القرن السابع عشر. فهل في الامر من عجب ؟ كلا ، فان القديس فرنسوا دي سال كان يمثل أعرق العائلات الانسانية ، تلك الانسانية الوجدانية الراسخة في الأذهان والتي كانت دعـــامة مدارس القرون الوسطى .

إذن ان آثار الكتّاب الأقدمين كانت تتضمن الانسانية مع وصفها الانسان بوصفه مخلوقاً عالمياً او نداً لأمثاله من الناس .

إن « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » و « شيشرون » و « سنيك » و « تيسيديد » و « بوليب » و « سالوست » و « تيت ليف » و « تاسيت » و « لكريس » و « فرجيل » الخ ... جميعهم عملوا من أجل المذهب الانساني كلٌ على قدر ما عني بتربية الانسان والاصلاح الفكري. وهذا المذهب الانساني القديم كان همّه ان يطبق عملياً أحكام نداء « دلفس »[1] الإلهي أي معرفة الانسان ، وتركيز هذا المخلوق في العالم وفي الوطن ، تصوير عمله بواسطة هذه المعرفة . وهـذه النظرية ناقضت الفلسفة المسيحية إذ انهما تصدّت الى تفسير علم لاهوت الأجيال الراسمة علامة الصليب . وهذا يدل على ان القرون الوسطى لم تصرم حبل الصلة مع القديم وان علم اللاهوت المسيحي حطم كل أثر للمعرفة القديمة .

إن آباء الكنيسة وعلماء القرون الوسطى حاولوا تحقيق اتحاد طبيعة ذات

١ - مكان قيل ان ابولون كان يصعق الارض بندائه .

عناصر إلهية مع شيء خارق الطبيعة يجدونه على زعمهم في كتب التوراة . وهي فكرة جالت أيضاً في خاطر جماعة من المتعبدين الذين جربوا ان يوحدوا بين عالم الطبيعة وعالم نعمة الرب .

لذلك ليس من الصواب القول ان البعث يعارض القرون الوسطى وان مذهب الانسانية ضد الفكر الشائع في القرون الوسطى، كذلك من غير الصواب ان نعتبر البعث تاريخ اكتشاف شخصية الانسان والعالم او ان نقارن بين المذهب الانساني وعبادة الأوثان . إن المذهب الانساني القديم الذي دان به الفلاسفة والشعراء استمد من عقائد الملحدين ما يصلح رمزاً . أما المذهب الانساني العصري والمسيحية فقد توافقا وانسجما . وقلما خلا العقل المسيحي من الانسانية او خلت الانسانية من العقل المسيحي، فعلامَ ظنَّ أناس القرن السادس عشر وفي طليعتهم « بترارك » وجماعة «كاتروسنتو» انهم يؤسسون معرفة جديدة، وان عليهم ان يقطعوا الصلة بالماضي العاجز عن وعي الأقدمين؟ إن «بترارك» كان يجهل القرون الوسطى، وقد خُيِّل اليه انه أول من يسعى لمصالحة القديم مع العالم المسيحي . وهو سعي بذله بحماسة وبرومانطيقية شفغة بحيث تراءى للبعض انه هو صاحب الاكتشاف .

وارتأى المعلمون المعاصرون لبترارك في باريس ان يؤثروا على أفكار القديس توما دراسة اللاهوت المعزز بعلم الفيزياء . ولكن خلفاءهم افتقروا الى العدة والى المنهاج فهجروا العلوم الوضعية واختاروا النظريات المجردة والمنطق الجـــازم، فكان ان ساد المذهب الانساني التقليدي المدرسي . مما لا شك فيه ان بترارك بفضل عبقريته قد سيطر حتى ظهور الاصلاح على تاريخ الفكر والعقل في اوروبا الغربيــة وإن كان المذهب الانساني عرف نصيراً له من قبل في كتابات دانت : عهد قديم يتجدد، وعالم جديد تتفتح براعمه في الأفق .

لم يكن في وسع «رابليه» وأتباعه ألا يؤمنوا، فالانجيل جابه العالم كوحدة لا تتجزأ، ونصوصه غير قابلة النقـــد، وتاريخ نشوء المسيحية لم يكن يطرح

للبعث طرح تاريخ مجهول ، إن عدم الإيمان العلمي لم يقصد المسيحية على انها مسيحية ، بل كان يغمز من قنـــاة كل ديانة تعلم ان كل شيء في الدنيا خاضع لمشيئة الله الخالق المشترع . إن القرن السادس عشر كان قرن الاستيحاء ، قرناً يحب ان يؤمن، ومعظم أرباب القرن الحديث كانوا من فئة مشبعة بعاطفة التدين، هكــذا كان الحال مع « رابليه » ومع « ديكارت » . صحيح ان لوثر و كلفن لم يكونا يعرفان ان حقوق النفس غير محدودة ، وانه ليس من المستطاع مماشاة « اوغست كونت » في إقراره ان ثمة رابطة بين اللوثرية الاولى والإيمان بوجود الله وبين الهرطقة العصرية .

إن تخويل كل مسيحي الحق في تفسير الانجيل على هواه معنـــاه مشاركة الكنيسة في حق محصور بين يديها ، وتعريض الكتاب للتقويض والاندثار . إن لوثر فتح الباب بوجه كلفن و كلفن فتحه بوجه فولتير،وهذا الأخير أعطى رينان المفاتيح .

إن كريستوف كولومبس وأعوانه عندما اكتشفوا القارة الاميركية لم يدُرْ في خلدهم محاربة تعاليم توما ولكن مع هذا طعنوا الانجيل طعنة نجلاء ، ذلك ان الانجيل وأرسطو كانا يجمعان كل المعرفة الانسانية ، وهـذه المعرفة كانت تجهل وجود أميركا . في العام ١٥٤٣ برهن كوبرنيك ان الأراضي (التي كان الأولون يظنونها نقطة جامدة) تدور حول نفسها عندما تدور حول الشمس [١] . وفي ذات الوقت احتل حكماء الوثنيين المناصب التي كان آباء الكنيسة محتفظين بها ، فذكر سقراط وشيشرون الى جانب القديسين لومبرواز ، واغسطينوس وتوما ، وفتحت مذاهب الطبيعيين والزيتونيين آفاقاً واسعة في دنيا الفكر .

على ان الثورة لم تسلم من الاصطدام : الحكم على « غاليله » ، طرد نخبـــة « نانت » ، بعثرة شمل « الجانسينيست » . وظل باسكال وحـده يرسم خطوطاً جديدة مشبّهاً المذهب الانساني « برجل دائم الوجود يتعلم دائماً» . وأما ديكارت

---

١ – حسب الكتاب المقدس فالشمس هي التي تدور ، بدليل ان يسوع أوقف دورانها .

المؤمن فإنه وضع نظاماً للثورة : « لا أقبل شيئاً أعدّه صحيحاً وصادقاً اذا لم أشهد صحته وصدقه». إن التيار الفكري الذي هبّ من « غاليله » الى « نيوتن» ارتطم بهيكل قام على مجموعة حقائق صادرة عن « الجانيز[1] » وعن ارسطو . وبعد قليل أرسيت زوايا هيكل آخر بعد أن رصفت أحجاره !

٤ — مولد الرأسمالية

إذا كان «ميشليه» يسمي القرن الثامن عشر بالعصر الكبير ، فإن « رينان » احتقره قائلاً : « انه اذا أطلقت فيه حرية التفكير فإن التفكير كان ضئيلاً ، وليس فيه ما يستحق الذكر » . قد يكون إطراء «ميشليه» لا تؤيده الحوادث تأييداً مطلقاً. أما « بول هازار » فقد رأى بين ١٦٧٠ و ١٧٠٠ أفكاراً يتباهى بمثلها عصر النور ، ان « رينان » بالغ في حكمه المعاكس . والاكتفاء بأقوال المؤيدين والمعارضين يضعنا في مجال ضيق لذلك لا مندوحة عن التطلع الى الأعماق والى الجوانب فنرى أن القرن الثامن عشر كان مسرحاً لثورة مالية كبرى هي حصيلة قرنين سابقين الى جانب ثورة صناعية ، ثورة الآلة .

كان الاعتقاد ان المدنية المعاصرة ترجع الى عهد الانقلابات الاقتصادية التي حدثت في انكلترا بين ١٧٦٠ و ١٨٣٢ أي بين جلوس جورج الثالث على العرش والموافقة على قوانين اصلاح التاج . ولكن لماذا عزوا المدنية الى انكلترا والى انقلاباتها ؟

إن نهاية القرن السادس يسجل نقطة خطيرة في تاريخ اوروبا الاقتصادي . أولاً ان الاسبانيين فقدوا سلطة الإشراف على المعادن الثمينة الاميركية . وبينما بلغت مخزونات هذه المعادن في القرن السادس عشر ثلاثة أضعافها لم تبلغ في القرن السابع عشر سوى الضعفين في حين ازدادت الحاجة الى نقد للتبادل التجاري . وجاء تدني أسعار المنتجات يزيد سوءاً الى سوء فقدان الاستقرار

١ — Genèses : سفر يروي قصة الخليقة منذ البداية حتى مولد موسى .

الناتج عن فساد أصيل .

ثم توقف ارتفاع الأثمان ثم هبطت،وتوالت حالات التضخم ووهنت الوثبات الاقتصادية وجهود الرأسمالية ، فراحوا يبحثون عن وسائل تقنيـــة ، في جو اضطراب الأسعار ، ففي كل بلد تدهور وهبوط وتعرقل وفتور وتفكك ، من الصعب تحديد أسبابها لأنها كانت خفية سرية ، فهـل الحروب هي التي أساءت الى الاقتصاد ؟ كلا ، ان الأصح أن تنسب هـذه النكبات الى الأحوال الجويه ، والى التلاعب بالنقود ، والى كثافـة السكان . والخلاصة ان القرن السابع عشر كان عصر أزمات كثرت فيه المشكلات الاجتماعية ، بينما كانت انكلترا تواصل سيرها في تنمية الرأسمالية القائمة على عظم تجارتها البحرية: زيادة التبادل التجاري الخارجي في عامي ١٦١٠ و ١٦٤٠ ، سن أنظمة اقتصادية مرنة ، اتقـان الأساليب الزراعية .

إن ثورة القرن السادس عشر الصناعية لم تنقطع عن السير .

لقد شابه التناقض بين النمو الاقتصادي في البلدان المنخفضة الواقعـة تحت الحكم الاسباني والنمو الاقتصادي في البلدان الشمالية ، التنـــاقض الموس بين اقتصاد الدول الواقعة تحت حكم شارلكان والدول الشمالية الاوروبية المتمذهبة بالمذهب البروتستانتي. انه تأرجح الميزان،والانجراف نحو شمال اوروبا وغربها، وانتزاع اوروبا الشمالية والغربية مركزاً اقتصادياً دام طويلاً في اوروبا البحر المتوسط .

وهل الاختلاف الديني كان يبرر هذا التناقض وهذا التباين الاقتصاديين ؟ والى أي مدى تصبح الديانة عنصراً اقتصادياً ؟

إن الكنيسة حرمت الربا ، في حين كانت هي تستقرض بفوائد فاحشة ، وتستعين بالمصارف والشركات المالية ، ثم كانت تمنع القروض على رهونات ، وإن كانت لا تمنع الاستقراض الكبير ، في حين كانت مبدئياً تكافح دخل الرأسمالية . وكانت تحبذ المقايضة : سلعة بسلعة ، او سلعة بمال ، يشترى به سلعة اخرى ،

ولا تحبذ الطريقة الماركسية ، إن في التجارة وجوهاً سليمة ، ووجوهاً ينكرها السلام وتعتبر خطيئة مميتة ، ومع هـذا فقد شقت الرأسمالية التجارية طريقها ، لأن الانسان - كما حدث في الإقبال على تعـاليم كلفن - يميل الى البحث عن عناصر المسببات والمولدات .

إن الديانة التي استصلحت أصلحت بدورها الخلق الاقتصادي . لقـد كانت تخشى تراكم الثروات ، ولكنها كانت تحـارب سوء استعمال الثروة لا تجمّعها ، وحكماء انكلترا المجددون حاولوا الجمع بين روح الاعمـال ومقتضيات العقل ، ومن هنا نشأ مبدأ المنافسة والصراع ، فما هي العلاقة بين تنمية الانتاج والأهداف البروتستانتية ، وهل المذهب الكلفني هو أب الرأسمالية المصرية ؟ إن الصراع قديم جداً . فحسب رأي تاوني ، لم يكن البروتستانتي سوى « الخميرة » وسوى « الحافز » ، فثمة عوامل لعبت دورها بشأن استعمال الوفر ، والتوظيف المالي ، والتوسع الاقتصادي ، لأن علم النفس تطور بعامل تجمع الصدف وائتـلاف الظروف ، وأثار تصاعد دخل المشاريع شهوة رب الالتزام والمقـاول ، وتاريخ القروض يثبت ان عهد الازدهار هو عهد « المال الغالي الأجر » .

وآمن رجال الأعمال بفوائد التعاون المشترك ، وآتتهم أحوال ملائمـة ، فشجعوا توظيف الأموال ونشطوا الانتاج وضاعفوا حجم الانتاجية ، وتوسعوا في التبادل . وكانت المكاسب في القرن السادس عشر وليدة ارتفاع عـام في الأسعـار . والازدهار الاقتصادي من صنع التوسع التجاري ووفرة توظيف رؤوس الأموال ولا صلة لهذه الحـالة الزاهرة بالاعتبارات الروحية أو بمساعي فكتوريا أو بتوصيات الاثانيين الرماة عن قوس المنافع بخاصة . إن سبب الرخاء عائد لا الى جماعة المحتجين بل الى تطور الأسعار !

على أنه يجب التمييز بين الحادث الأدبي الذي هو ولادة مثل عليا والحادث الاجتماعي الذي هو انتشاره وشيوعه . كيف تربع المحتجون على سدة التاريخ ؟ عندما عجزوا عن شرح الاقتصاد شرحوه اجتماعياً ، فهل في المستطاع عزله عن

الطبقات التي ترعرع في وسطها ؟ لقد كان العقل ينظم المجتمع ، ولكن كان ثمة مجتمع ينظم العقل .

في كتاب البروتستانتية والرأسماليـة يعتبر « ماكس ويبر » أن الكلفني غير المطمئن الى انتخابه كان يفتش عن ازدهار أشغاله المثمرة ، وحيث أنه لم يكن واثقاً من نجاحه لينصرف الى الراحة عمد الى تشغيل أمواله مرات عديـــدة ، وجني أرباح عظيمة بطريقة حسابية دقيقة .

إن ويبر لم يفكر بدحض الماركسية بمعارضتها بنظرية تاريخية للمثل العليا . انه ثار على مبدأ نشر فلسفة مطلقة التفسير ، وعلى زندقة التاريخ على يـــد الاقتصاد .

هذا وينبغي أيضاً الرجوع الى القرن الرابع عشر والى ظهور الرأسمالية المتاجرة في المدن الايطالية والى حين مولد منطق الكسب الفاصل بـين النظام الاجتماعي والنظام الفردي . هذا المنطق الذي جاء بنظرية التشاؤم الاجتماعي ، لمجتمع غير مؤلف من فئات نظامية تتعاون فيما بينهــا بل من أفراد يكافحون في سبيل كسبهم ، كل لنفسه وعلى الآخر ، والجميع على الجميـع .

إن اللجوء لنظام مكيافل ، ونداء أمير لوثر يرميان الى حفظ النظـام في مجتمع مشرف على الفوضى .

ليس من الثابت أن الصيارفة لجأوا الى جهاز معقد ، وقد كان من اليسير لهم حسم أوراق صيرفية لتجنب الدفـاع عن الكنيسة ، ولكن من العدل التسليم بظاهرة هي أن التجار الصيارفة لم يكونوا يقومون بأعمـال الحسم أي القرض وإنما كانوا يغطون القروض بستار الصيرفة على أنها استبدال نقد بنقد وهمـــا عملان مشروعان .

لقد أهمل الناس طويلاً حكمة الأسياد الاقتصادية وأثرها على سوق الرأسمالية . وماذا كانت تعني هذه الحكمة بقولها : الربا المعتدل ؟ إن مستوى الربا لم يكن منسـقاً بل كان السعر هو ما تفرضه منافسة السوق .

إن المذاهب المدرسية لا تمنع نمو المصرف ، ولكنها تغير صفة عمله بتحريمها الدين بفائدة ، وسماحها بإبدال عملة بعملة من مكان الى مكان . وبهذا أتاحت المصارف أن تمارس مهنتها دون أن تحيد عن نواهي الدين السائد . ويستدل من الاستهلال التضرعي الذي كان يتوج دفاتر الحسابات أن أرباب المصارف كانوا متدينين شأنهم شأن سائر الشعب . وهكذا كانت الفلسفة الدينية تلائم مشاربهم فكانوا يوفقون أعمالهم ومتطلبات الضمير .

وبين العادات والمصطلحات المطبقة عندهم واحدة لعبت دوراً جوهرياً ، فلولا الرأسمالية ولولا التسهيلات المالية لما بلغ الازدهار الصناعي هذا الحد الرفيع ، إن رؤوس الأموال أخذت تتراكم وتتضخم ، وأساليب الدفع تتزايد والتجارة البحرية وتجارة المستعمرات أرصدتا رؤوس الأموال في اوروبا الغربية التي أصبحت مستودع الودائع الذهبية والفضية العالمية ، ومع هذا لم تكن هذه المعادن كافية لتسديد المدفوعات نظراً لبطء تداولها ، هنا اتقن الفن المصرفي . فبين عامي ١٢٧٥ و ١٣٥٠ قام نوع جديد من العقود مجهول في القانون الروماني: عقد المبادلة ، الذي كان من شروطه في مطلع عهده ان يسجل لدى الكاتب العدل . ثم اكتفي بكتاب اسمه « كتاب المبادلة » له صفة التنفيذ والاعتبار . ثم أفضت طريقة التحويل الى جعل « كتاب المبادلة » سنداً قابل القبض والحسم.

من روح هذه الأنظمة استمد الجهاز المصرفي العصري قواعده وأسسه !

إن سوق العملة الدولية ليس بالشيء الجديد في القرن السادس عشر فقد عرفت في زمن معارض شمبانيا ، ولكن نطاقها اتسع في انكلترا والبرتغال وقشتالة والأندلس والمانيا . إن مدينة انفرس بدأت بالوثوب ، وبدأ متمولو اوكسبورغ حملتهم لمزاحمة أخصامهم القابضين على أعناق الشركات القديمة .

إن القرن السادس عشر لم يزحزح أسس سوق العملة زحزحة جسيمة ، فالمصارف ظلت تتاجر بالنقود وتغامر بالرغم من معارضة الأنظمة الكنسية لكثرة صفقات الحسم ، والعدول عن التحويل وعرقلة حرية تداول السندات

التجارية . فالتبديل الجوهري هو الذي حصل من جراء إطلاق حرية التحويل وحرية الحسم ، فالاصول الماليـــة العصرية يبزغ فجرها من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .

أما بشأن الاجور فإن استقرارها في القرن الثـــامن عشر يتناقض وتقلب الأسعار . فارتفاع الأسعار دليل ارتفاع مقام البورجوازيين وإشارة الى ضخامة مصالح الطبقة الصاعدة، تحت تأثير منطق اجتماعي لا سبيل الى فصله عن المنطق الفردي . ففي القرن الثـامن عشر ارتفعت تكاليف المعيشة مع هبوط مستوى الحياة . وارتفاع الاجرة الاسمية كان يتبارى وسقوط الاجرة الراهنة ، وقـد حمل الاعتداد بشعور التفوق البورجوازية في سنة ١٧٨٩ على ان تحـــالف أهل الزراعة ضد الاقطاعية ، وكان الدخل المالي سبب الصراع الذي عقب التحالف.

قبل المسيحية ، اضطرت البروتستانتية الى التنـازل عن أشياء كثيرة لروح العصر . ففي انكلترا درج تحويل السندات التجارية . وكانت المبادلات محفوفة بالشبهات في المحافل الحكومية وفي الأوساط الشعبية ، وهي تهمة موروثة . ولم تكن لندن في أوائل القرن السابع عشر سوى وسط تجاري ثانوي مما يبين لماذا سرَتْ عـادة تحويل السندات بسرعة أقصى من تلك التي تمت في امستردام مع ان هذه المدينة كانت ذات نظام حر إلا انهـا كانت مرتبطة بأسواق اخرى في القارة . امتدت الحركة بامتداد التجارة والصناعة ، بعـد معاهدة اتريش سنة ١٧١٣ ومعـــاهدة باريس ١٧٦٣ إذ وزع مصرف اكوس فوائد بنسبة ٢٠ ٪ ، وامتازت لندن على امستردام ، واكتظت الأسواق بالشركات المساهمة ، وأصدر جون فريك في ٢٦ آذار عام ١٧١٤ أول مجلة مالية . وكانت فرنسا قبل «ليه»[1] قد طبقت نظام الشركات المساهمة ، والسهم لحامله ، والبيع على آجال ، على ان حاجات الدولة التجارية كانت أعظم وأوفر من حاجات التجارة الكبيرة ، ذلك

---

١ – جوهن ليه ، رجل مالي وضع قواعد المصارف ، وغالى في نظرياته حتى قاد فرنسا في عهد الرجنس الى الإفلاس .

ان الدولة مهددة بالإفلاس من جراء الحروب التي شنّها لويس الرابع عشر والتي نبّهت أفكار « جوهن ليه ». إن العملة لم تكن في نظر هذا الأخير سوى أداة مبادلة ، فالمعضلة كانت تدور حول تبادل العملة وهذه الفكرة كانت جازمة ، والإصلاح لم يكن مديناً بشيء الى العقل الفلسفي. إن فردريك كان يهزأ بمونتسكيو وبفولتير وروسو ، مثلما كان يسخر بأتباع سقراط القـــائلين بإنشاء الشكنات وتوزيع العلف والبذار والماشية . أمـــا كاترين فقد قصر عملها على امتداح هؤلاء المؤلفين ، وكاد يوسف يطل على الخراب لإصغائه الى أقوالهم . إن الدساتير الاوروبية مدينة بعض الشيء الى فرنسا القرن الثامن عشر ومدينة بأشياء أكثر الى فرنسا القرن السابع عشر وإلى انكلترا معاً . في هذه الفترة كان كل الاتجاه يتلقى رياحه من الجانب الانكليزي .

٥ ــ النهضة الصناعية

كان الانكليز أول من استعمل الفحم الحجري وتراب الحديد ومشتقاتــه . ولكن الصين منذ آلاف السنين عرفت هذا الفحم . على أن الانتفاع بهذه المادة الوقودية ظل ضعيفاً في منطقة «لياج وعلى مقربة من نيوكاستل ونوتنغهام » حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر . ان توما الموري يتحدث عن فحم الأرض حتى عهد اليصابات إذ كان تراب النفط هو الأكثر استعمالاً . بعكس انكلترا التي أقبلت على استعمال الفحم الحجري منذ عام ١٦٤٠ إذ كانت لندن أوفر سكاناً من جميع مدن اوروبا وأكثر حركة صناعية . فالفحم الحجري أسهم إسهاماً كبيراً في المدنية الصناعية ولاسيما في إنتاج الصناعات الرخيصة الثمن . خلافاً لإنتاج السلع الفنية الدقيقة . وهكذا ساعد الفحم على شيوع البضاعة الشعبية التي كانت مهملة في اوروبا في القرون الوسطى ، وفي عهد الانبثاق حيث كانت الهمم منصرفــة الى الأبنية الدينية والى قصور الأمراء والى صنع الأشياء الفنية الثمينة . واتجه الجهد الى الكمية المتحكمة في الاقتصاد . أجل ان القرون الوسطى وعصر البعث لم يكونا يجهلان الأصول التقنية ، ولم تكن ذهنية الاستنباط مفقودة في اوروبا قبـــل

الإصلاح ولا كانت غائبة عن القارة نتائج هذه التقنية . ولكن ينبغي التمييز بين الإنماء والاصول التقنية ، بين استقصاء الطرق العلميـة ووضعها موضع التطبيق العملي .

لذلك كان استخراج الفحم وتسخيره لإشعـــال الأفران تحولاً جسيماً في أهداف الاقتصاد الاوروبي حيث أصبح الغرض الإكثار من الانتـاج في المصانع الانكليزية على عهـد الملكة اليصابات ، وجاك الأول . ولم يكن عظم الانتـاج وكبر حجمه في انكلترا همـا كل شيء ، بل الشيء المهم أيضاً هو وفرة توظيف الأموال في المصانع الضئيلة النمو . إن غرض التوظيف كان أسمى من غرض الإكثار . ذلك انه قبل الاصلاح كانت المشاريع الصناعية والماليـة والتجارية راسخة القـدم ، ولكن معظمها كان من صنع السلطات الكنسية او العلمانية . فوقوع هذه المشاريع بأيدي الخاصة والأفراد ذو صلة وثيقة بالرغبة في البحث عن الكمية وإقرار شرعة الإكثار .

في منتصف القرن الثامن عشر كانت الثورة الصناعية معقودة اللواء لانكلترا زعيمتها بلا جدل . وفي القرن الأوسط كانت الزعامة جانبية ، على انه في عهـد هنري الثـــامن ، كانت انكلترا مركزاً اولياً لصناعة الصوف وموردأ للمواد الاولية أكثر من كونها بلداً زراعياً وصناعياً. وقد زاد تأخر الصناعة في انكلترا إن الملك سحق الأديرة. ولم يكن له يد في إنعاش الفكر والعمل إلا من حيث انه أعلى شأن علماء القرن السابع عشر أمثال «جلبر» و« تابيه » و«بويل» و«هرفي» و«فونن» و«هوك» الخ . وقد يسر قطع علاقته بالماضي كون هذه العلاقات كانت قليلة وضعيفة . يضاف إلى ذلك التوزيع الجغرافي للموارد المولدة الجديدة .

اتجهت العناية متجهاً آخر ، نحو القيم المادية ، وطرأ تبديل في آفاق الحياة، تجاوب ومناعة الرأسمالية الفحمية فالقرن التاسع عشر ولد تحت كوكب الذهب والحديد والنحاس والنفط والماس . إن روح المعدن لقحت الاقتصاد والمجتمع .

في مطلع القرن السابع عشر تمنى « ديدديدلي » أن يحل الفحم الحجري محل

فحم الحطب في التصنيع والتعدين وهذه الامنية تحققت على يد « ابراهيم دربي » عام ١٧٠٩ فالأفران الحامية صارت حقيقة في عام ١٧٦٠ والطريقة صارت متبعة في شروبشير وفي شمال انكلترا ونمت صناعة الصلب مع اكتشاف المضخة المزودة المكان بالهواء ، المضخة البخارية التي اخترعها العالم (وات)[1] ثم ان زيادة الطلب على الحديد ضاعف الطلب على الفحم . أنه ميزة النصف الأول من القرن الثامن عشر في حقل علم التقنية .

ان رجل القرون الوسطى والإنبثاق لم يكونا يعرفان الحساب،فالعلم اليوناني لم يهيىء ما يسميه اليوم المرشحون لجائزة روما .

أشار باسكال في مقدمة اهدائه رئيس الوزراء سيز عام ١٦٤٥ الآلة الحاسبة إلى صعوبة الحساب بالقلم الذي عليه أن يحفظ أرقاماً ضخمة ويذهب إلى أعالي الأرقام. مما يرهق الروح ويزهق النفس.وفي عهد «رابليه» كانوا يعدون بواسطة المربعات وهي لوحة أشبه بالتي تستعمل للعبة الشطرنج واسمها « اشكيه » ومنها أخذ لقب وزير المالية .

ان في تاريخ عداد الوقت لسان حال ناطقاً بمولد العقل التقني الذي توغل تدريجياً ، وأبدل التفكير والحقيقة ، وهذه التقنية رفعت العقل بدورها إلى القمة . إن التقنيين وصانعي الساعات في القرن الثامن عشر استطاعوا أن يدخلوا التحسينات على الآلات التي لم يخترعها السابقون لأن هؤلاء كانوا يعيشون في جو آخر . وكانوا مهوسين بروح الدقة . أن الضبط دخل العالم عن طريق الآلة ، ان الفكر التقني شق طريقه ليس بحد السيف بل بحد الآلة .

في الوقت ذاته كانت التنمية التجارية تخلق حاجات جديدة ، وكانت ليفربول تستورد الاقمشة القطنية من الشرق إلى أن توصلت منشستر إلى انشاء صناعة نسيج مماثلة ، واكتفت ليفربول عندئذ باستيراد القطن الخام ، ولم يبق إلا تقليد صناع آسيا ومضاهاة صناعة النسيج الذي يخرجه الاسيويون في موسون القانعون

---

١ Watt عالم اكوسي اخترع الآلة البخارية . (المترجم)

بحياة وضيعة والمالكون ناصية صناعة يدوية برشاقـــة ومهارة لم تكونا عند الاوروبيين .

عندئذ اضطر الاوروبيون إلى صنع آلات جديـدة ، فجميع الاختراعات التقنية والآلات الصناعية ولدت من جراء فقدان التوازن الاقتصادي ومن الرغبة في الاقلال من نفقـات الكلفة . وأخيراً من الحاجـة إلى رؤوس أموال بفوائد صغيرة كي تجني الأرباح الكبيرة . والجدير بالذكر أن هذه الاختراعات لم تكن بنات عقل العلماء بل من صنع صناعيين يدويين ، رجال الحرفـــة والمهنة الذين قادتهم الخبرة إلى محجة الاختراع. إن هركرافس كان حياكاً ثم نجاراً، وكرمبتن بارم الخيط وحياكاً . وكان آل وربي معلمي حدادة ، إن آلة صهر الحديـد اخترعها عام ١٨٨٣ مدير ورشة اسمه « هنري كورت » بمعاونه مساعده العامل واسمه «باتر اونيون». وآلة نيوكومن أصبحت صالحة للصناعة سنة ١٧٦٤ بفضل «جمس وات» الذي كان يصنع أدوات المختبرات الخ. إن جيمس وات هذا استفاد من ميزان الحرارة الذي وضعه «بلاك» وهكذا تعاون العلم والتقنية ، وكان كلما عثر الصناع على طريقة من الطرق العملية تناولها العلماء بالدرس ووضعوا لها قواعـد وشرائع لتهيئة وثبة العصر المقبل. وكان كل اختراع ينبت خللاً جديداً في التوازن يفضي إلى البحث عن آلات جديدة . فاختراع آلة الغزل أخرج الخيط الرفيع ، الذي فاضل النسيج الغليظ الذي كان يصنع يدوياً ، ولما تبرم الغزالون بخيوطهم وعجزوا عن بيعها في بلادهم أولوا وجهم أنحاء القارة وتعرضوا لأخطار المنافسة ، مما دعا « كرتوريح » إلى اختراع الصناعة الآلية التي عمت كل مكان منذ عام ١٨٠٠ ثم بدت النتائج السيئة للصناعة الكبرى : أزمة تضخم الانتـــاج والافلاسات وزيادة عدد السكان ، والجمود الريفي ونهوض طبقــة من الرأسماليين الصناعيين ، وتكوين طبقة العمال . وفي عام ١٧٨٥ أعلنت الاضرابات تصحبها أعمال العنف ضد الآلات وعلى مالكيها ، وهنا ينبثق عصر الصراع الطبقي ، وتتجه الحياة الاقتصادية نحو قوى جديدةُ ، وأهداف جديدة ، وغايات جديدة . إن تقسيم المجتمع إلى طبقات صار واقعاً ملموساً رأى فيه الخياليون ناموساً طبيعياً !

٦ ــ الثورة الزراعية

حركة أخرى في الميزان الاوروبي. إن تدفق تأثيرات الأطلنطيك على الحياة الاقتصادية قرع جرس الحزن ناعياً التفوق المتوسطي في حين كانت البلدان المحاطة بالمتوسط محرومة من القوة المحركة وعلى الأخص الفحم الحجري الذي قامت عليه سدة الصناعة، وانتقلت الحياة والأعمال شمال اوروبا وغربها مطلقة الماضي، ولكن الطرق التجارية في المتوسط لم تهجر إلا حوالي القرن السادس عشر عندما استطاع الانكليز والهولنديون القبض على زمام المناطق التي تنتج البهارات والأفاويه. وفي هذا الحين مني المتوسط بأزمة نقد، ذلك ان الانكليز والهولنديين كان بمقدورهم أن يدفعوا ثمن السلع نقداً في أسواق الهند، بفضل ما عندهم من المال الفائض. وهكذا كان للتوفيق البريطاني يد في رجحان كفة الميزان وفي تعزيز الاكتساح الأطلنطي وتثبيت أقدام العالم القديم على حساب تدهور المتوسط.

كان من غير المعقول أن تحدث هذه التبديلات من دون أن تؤثر على الحياة الزراعية، وعلى جمود عطاء الأرض وإمساكها. لذلك يصح القول أن ثورة زراعية نهضت الى جانب الثورة الصناعية. فالأولى بسطت رواقها على عدة سنوات وقل على عدة قرون. وللثورة الزراعية خاصتان: الزوال العاجل للعمل المشترك وظهور الأساليب التقنية، وكلاهما متلاصقان. وكلما تلاقيا تنشب الثورة، ومع هذا لم يكونا معاصرين. ففي بعض البلدان كان النظام الزراعي الحديث يسبق الإعراض عن العمل الجماعي المشترك، ففي انكلترا لم تبدأ حركة الأراضي المسيجة[1] منذ أن تدخل البرلمان بل انه في عهد الملكة اليصابات ونظراً لانهيار نظام المجتمع القديم، أخذ مستشارو التاج ينصحون بتشييد صرح نظام جديد. وفي عام ١٥٥٧ وضع «توما تيسر» مؤلفه عن الأصول الزراعية ومبادئها[2] وتزعم فكرة الأراضي المسيجة، التي تسربت الى

١ ــ وهو ما يسمى الآن الحيازات الزراعية. (المترجم)

٢ ــ Hundreth Good Pointes of Husbandrie.

الشعب رويداً رويداً ، وقضت على عادة الأراضي المشاعية غير المحددة وغير المسورة .

على أن استصلاح الأرض البور ، وتسييج الحيازات الزراعيـة واستملاك الأراضي الأميرية ، لم تكن حدثاً جديداً ، فهذه البدع لم تشب وثبتها الجبارة إلا في سنتي ١٧٤٠ - ١٧٥٠ بسبب ارتفاع أسعار الحبوب الذي رفع بدوره أجور المساكن ، نتيجة تكاثف السكان وتعاظم شأن الزراعة . وقد قويت حجـة القائلين بالأراضي المسيجة عندما عظم قدر الآلات الزراعيـة ، وازداد الطلب على المواد الغذائية ، فاقتنع الناس بفساد ترك المساحات غير محصنة وغير محددة.

٧ ـ صراع عالمين

كان القرن الثامن عشر صراعاً بين عالمين : العصر الأوسط الذي كان عاملاً باختراعاته وأساليبه التقنية الحديثة على تقويض النظام الاجتماعي . والعالم الثاني العصر الحديث أو الحدث العصري الذي كان يغرس جذوعه في كل أرض تتخللها الألغام . كانت باريس عام ١٧٨٩ بالنسبة للحياة الاقتصادية لا تتعدى مساحـة حي كبير ، ان الموسوعـة احتوت على العلوم والفنون والحرف . أي أن المهن الآلية جاوزت أعمال الفن و كفت الحرفة عن أن تكون شغلاً وضيعاً وارتفعت الى درجة أدبية اجتماعية ، لقد تآلفت الإنشاءات الجماعية والآلة الحاسبـة ، فالعامل الذي يقود المحرك كان بالوقت ذاته صناعياً يدوياً ، انه عامل كفؤ لجميع المهن في حين أن المهني اليوم غير العامل إن نظام المهن المشتركة من طبع الصناعة الناشئة . وهكذا أعيد الى العمل اليدوي سابق اعتبـاره وصار السر كله في ناحيته الفنية وغدت الآلات في غاية الدقة والضبط . على أن جماعة الموسوعـة لا يسلمون بأن الآلة يمكنها الخروج على إرادة مخترعها لتصبح بحد ذاتهـا عنصر حضارة . إن التفكير لا يستسيغ وجود عامل متمرن ساحر . مع أن هنـاك جملة مصانع تضم عشرات الألوف من العمال . وعندما وضع « آدم شميث » عام

١٧٧٦ مبدأ توزيع العمل لم يفعل أكثر من تجزئة عدة مهن يدوية الى عدة مهام .

هنا يستفحل القلق من هاجس البطالة من جراء التكنولوجيـــة ، فيزعم مونتسكيو أن جريمة الطواحين على الماء كونها انتزعت العمل من سواعد عديدة، فتطرح قضايا الاقتصـاد الرأسمالي للبحث ولا تلاقي حلولاً ، إن الفكر لم يلحق بخطى الوقائع والحقائق الحسية .

على أن الايمان بالتقدم التقني بشير بعهد النور والإشعاع وفرصــــة لأناشيد نظمها جماعة القديس سيمون ومآ لهـا : إن الآلة لرمز انتصار الفكر على التطير والشؤم . إن أحسن امثولة تعطيهـا الموسوعة ايمانهـا بالتقدم البشري . وهذا التقدم يقود إلى حقيقة التطور الاقتصـادي والاجتماعي ويحث على بذل الجهود لتعجيل هذا التطور وتوجيهه المتجه الصالح . وفي نظر واضعي الموسوعة أن لا تقدم إقتصادي إجتماعي بمعزل عن تقدم زراعي . ففي صفحة : الإقتصاد الريفي نقرأ : أن الإقتصاد الزراعي هو معرفـــة جميع الأدوات المفيدة والضرورية للحقول، ومعرفة الحصول عليها وحفظها واستعمالها لاحراز أقصى حدود النفع.

إن هذه الطريقة المفضية إلى الغنى لذات قوة عظيمــة . وقد تكون كمن باع نفسه للشيطان للحصول على الثروة ولكنها على كل حال مؤزرة بازار «ماركس». ثم ان كلمة الاقتصاد الزراعي تقع في الموسوعة في الفصل الزراعي.ومن الشرحين يتضح أن الانتاج الزراعي يمت بصلة وثقى إلى حياة العصر . إن جميع الشؤون الاقتصادية مطروحة بشكل حسي : العلاقة بين الانتاج والاستهـــلاك ، بين الانتاجية والدخل ، بين مستوى الحياة والمستوى الادبي ، بين الطاقـة الوطنية والتجارة الدولية . وهذا التحديد البسيط غير التافه هو قاعدة التفكير العصري بشأن الدخل الوطني وانتاجيـة العمل . لقد اكتشف العلماء هذه الحقيقـة بعد مضي قرن ونصف قرن .

إن آدم سميث في كتابه : «مدخل على ثروة» الامم يقرر سنة ١٧٧٦ أن نظاماً طبيعيـاً سارياً في كل مكان يعيش حيثما اطلقت الحرية للطبيعـة ، وهذا

النظام هو الأصلح. فالانسان ينزع إلى تحسين أحواله، أنه أدرى بمنفعته الذاتية. فاتركوا له الحبـل على غاربه ، وليس للدولة أن تتدخـل إلا عندما يبدو أن المواطنين عاجزون عن إصدار الأنظمة الناجعة . هل العـالم جمهورية واسعة من الانتاج والاستهلاك مرتبط الواحد بالآخر ، والأمن ينبع من وجـــدان هذا التلاحم ؟

لم يجب الاقتصادي الاخلاقي على هذا السؤال المطروح في القرن الثامن عشر. ولم تلبث الظروف ان تبدلت . وتحرك ضمير الطبقات، وحل تفاؤل العالم سميث محل تشاؤم العالم ملتوس [1] تطور بررته الوقائع ، فالتدهور الذي حدث سنة ١٧٨٩ مرتبط بالأزمة التي سبقته ، والشر كان مصدره الجهاز الهزيل ، جهـاز القرن الثامن عشر .

بيد أن موجة الانتعاش غمرت قسماً من القرن الثـامن عشر والثلث الاول من القرن التاسع عشر . وكان مدها الاقتصادي غير منتظم وغير منسجم والمد في القطاعات الأخرى وكان يصادف أن الهزة الاقتصادية تتبع الأخرى من غير انقطاع ، ولم تتشابه مرحلة ١٧٣٣ – ١٨١٧ ، إذ كانت تمنى بارتفاع وانخفـاض خلال فترة قصيرة ، فتقدم مفاجىء ، وتأخر مفـاجىء ، ولم تتحرك عجلات الازدهار إلا بين عامي ١٧٣٣ و ١٧٦٤ ، وازدادت سرعتها غداة حرب السبع سنوات سرعة خارقة العادة ضربت الرقم القياسي، ولكن أزمة ١٧٧٠ أوقفت سير هذا الازدهار .

وبعد أن دار الجزر دورته المادية عاد ليدور دورة عــــادية مخالفة لسنة الدوران، انتهت عام ١٧٨٧ ثم استأنفت الحركة نشاطها واستمرت في عملها حتى سنوات القرن الأخيرة واقترنت بالعهدين القنصلي والامبريالي واستحثت هـذا النشاط .

---

١ – عالم اقتصـادي انكليزي صاحب نظرية ان تزايد السكان سوف يؤدي إلى مجاعـة بسبب نقصان الزاد .

وفي نطاق هذا الاقتصاد القائم على نمط قديم ، لم تكن أحوال العمال جلية وصريحة ومضبوطة لا من الداخل ولا من الخارج ، بسبب تدني أسعار الحبوب، وجاءت الدوافع المحرضة من سوق القمح ، لذلك يجب القول ان اقتصاد القرن الثامن عشر معدود من اقتصاد النمط القديم : فلا مستوى حياة تمثله الجماعات وتقدر على الاحتفاظ به ، والأزمة الاقتصادية تبقى احتمالاً يهدد بالفواجع ، على أن عدم استقرار مستوى الحياة لا يعارض مولد مستوى حياة جديد ، وقد يعوقه كحجر عثرة .

في الوقت الحاضر ، ان ارتفاع تكاليف الحياة باستطراد معناه أن الأعمال ناشطة. ولكن في الزمن الماضي كان يعني العكس ومع هذا فإن رؤوس الأموال المنتجة كانت في نمو تحت وطأة ارتفاع الأسعار وجني المكاسب ، وكانت تشغل الأيدي العاملة ولكنها كانت عاجزة عن إيجاد العمل مماشاة لتضاعف المواليد . إن أجرة العامل كانت ترتفع باستمرار ، وقد اتسع نطاق الفئات العاملة ، وكانت زيادة الأجور تبلغ ثلاثة أضعافها في حين أن غلاء المعيشة لم يبلغ سوى ضعفيه . وكان الوفر العمالي المتزايد يشكل قيمة عينية ، ويعزز القوة الشرائية، ولكن توزيع الحصص كان يجعل الأجرة أضعف مما هي في الواقع ، وكان هبوطها مراراً يتناقض وارتفاع دخل الرأسماليين . هذه هي الشرارة التي منها اندلع لهيب العالم « ملتوس » : إن المجتمع الاقتصادي قام بواجبه فعلى الإنجاب والولادات أن يكونا عاقلين معتدلين .

كان العصر عصر اندفاع نحو كثرة النسل ، دام طول القرن التاسع عشر ، كما كان عصر نيوتن ولوك [1] عصر الإنشاء الفلسفي الذي حجب الكتاب المقدس بستار من نسيج الدهريين .

إن الموسوعة التي وضعها « تركو » تذكر أن نيوتن شرح البلد الذي اكتشفه

---

١ – نيوتن عالم انكليزي حلل الأضواء . ولوك عالم انكليزي كان لا يؤمن إلا بالمحسوس والمنطق .

« ديكارت » . والنظرية الآلية بالرغم من نظرية « لوك » القائمة على أن التجربة هي المعول عليها ، إن لم تكن النظرية الآلية غريبة عن تزويد مخيلات — الذين عكفوا على دراسة شؤون الانتاج — بالوحي الضروري .

إذن في مدن القرن الثامن عشر وضعت اسس الثورة ، لأن المدينة تجمع اجتماعي ذات تكوين متعدد النواحي تعيش على مدى واسع تحت وارف الحياة الاقتصادية العصرية، مدينة برجوازية ودون البرجوازية، تصلح نموذجاً. والهزات الاقتصادية لا تنتقل عدواها إلى الهزات الاجتماعية . إلا عندما تمس المعاقل الزراعية .

أما الفلاسفة فقد التفتوا إلى العلائق البشرية المتولدة من التجمع الصناعي . كذلك بنى ماركس [1] موضوع كتابه : رأس المال على التحليل السريري للعلاقات الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية . ثم حلت مدنية زراعية محل المدنية المالية ، وتم ذلك بشكل فاجعة لأن سكان الأرياف كانوا في الغالب من قدامى لمزارعين الذين طردوا من مزارعهم هذا وقد غدا تزايد السكان عنصر تساؤل إلى جانب الأنظمة الاقتصادية التي شرعت تتطور بفعل تزاوج الآلة البخارية والآلة الاخرى ، والتي أعارت علم الفلاسفة انتباهاً زائداً . وهكذا أصبحت الموسوعة موسوعة طرح الأسئلة لا موسوعة حلها .

من غوتنبرغ [2] الى كوبرنيك، الى مهندسي عصر البعث، من لوثر واغسطين دي لويولا الى سرفنت وشكسبير ومونتان ، ومن ريبان الى ديكارت الى فولتير وديدرو الخ . كان عدد الرجال المثاليين يزداد، وكان كل واحد يمثل ناحية فذة، ويتنبأ عما ستكون عليه المدنية الاوروبية : حق كل امرىء في أن يبحث بذاته عن الحقيقة وعن ركائز عظمته في ممارسة مواهبه . لقد تبدلت الأيام . وإذا كان الاسكيريال قد تسير بقوة الايمان فإن دي سكس وأشخاص البورسلين

---

١ — في انكلترا في القرن التاسع عشر .

٢ — مهندس الماني أدخل اصلاحات جمة على الآلة الطابعة .

غزوا القصور وقاعاتها وعلى ضريح الارمادا شادت اليصابات مجد انكلترا . وفي عام ١٦٤٨ أعطي لصلح «وستفالي» معنى وصدى اوروبيان ، والكاهن القديس بطرس يطلق النداء لإنشاء اتحاد دول اوروبا. وأفكار روسو تتجاوب وأفكار لوك لتضرم لظى النفوس . وتتألف الجامع العلمية : في لندن وباريس وبولونيـا وبرلين واستكهولم كي تؤلف نغمات موسيقية تعبر عن حقائق يفهمها جميع الناس.

على أن غوته بمؤلفه : عذاب الفتى ورتر علـّم البورجوازية الالمانيـة طرقاً جديدة للشعور والحب . وفتح الباب للروائية والرومنطيقية ، ومهّد للموسيقار بتهوفن السبيل ليصبح رجلاً فذاً ومثالاً .

هل ولد القرن التاسع عشر من الثورة الفرنسية التي أعلن «كنت» أنها ستصبح ثورة اوروبية . أم ولد هذا القرن من معركة « فلمي »[1] التي قال عنها غوته انها مفتاح عصر جديد ؟

كلا ، ان القرن التاسع عشر وليد التيارات العظيمة التي تضخمت عبر القرنين الخامس عشر والسادس عشر ،ووليد الانقلاب الاقتصادي والاجتماعي والفكري والفلسفي. لقد بزغ فجر الصناعة الكبيرة ، واشتد الصراع بين الطبقات. وكان عام ١٦٢٠ مرحلة رسو الباخرة ميلفور في الشواطىء الأميركية مقلة جماعة من المنشقين الدينيين،من جماعة البروتستانت التي أنشأت انكلترا الحديثة ،فتكونت ماساشيوست بعد مستعمرة ماريلاند ، وفي عام ١٦٣٦ كان لأميركا الانكليزية أول جامعة هي جامعة هارفارد . وهكذا انطلقت المدنية الاوروبية في العـالم ولم تعد محصورة في القارة الاوروبية إذ امتدت جغرافياً لتعطي وتأخذ !

من هنا يبدأ العصر الحديث .

---

١ - Valmy : مدينة على المارن اندحرت فيها بروسيا . (المترجم)

٣ بحثاً عن المستقبل

في أواخر القرن السابع عشر كانت شعوب لا تزال في آسيا وافريقيا واميركا في مرتبة المسحورين بخرافة الأرواح والسحر والتنجيم . كما كانت شعوب الأزتاك والمياس Mayas تؤمن بسيطرة النجوم. نعم ان تبادل المنطق بين مختلف الأفكار قد فعل فعله ولكن الأساس من هذه الأفكار ظل من وحي الشعور الباطني ومن تأثير العقائد الخفيـة . فالمسلمون سلكوا الصراط المستقيم ونبغ منهم المتكلمون وأهل المنطق والإدراك والعقلانيون وذوو التفكير الجدلي الخ .

والاوروبيون أنفسهم الذين خلقوا مذهب نكران الوحي المستند الى كيف لا الى كم ، عادوا وتجاوزوه الى مذهب نكران الوحي المستند الى كم ، في حين أن «باسكال ونيوتن» وسواهما من موقعي ميزان الفكر وأوتاره توسعوا في هـذا المذهب حتى أرادوه خاضعاً للتجارب .

فما هو سبب هذه الطفرة ؟

إنها نتيجة تحرر الفرد . إن الفئات الاجتماعية كانت قوية ، ولكن سلطـان

الأبوة ، وقوة الانحدار ، وضغط الكنيسة ، وتدخل الدولة لم تكن تضاهي عظم التأثيرات الناتجة عن ممارسة خرافة الأرواح وعادات القبائل ، وتقاليد الأسرة الصينية .

لقد حاول البعض شرح انتفاضة الفرد المتعالية بأن نسبها الى اعتبـــارات عنصرية قومية ،والى خصائص جغرافية . هنا ينبغي أن نشير الى زوال الاقطاعية والى تكوين الدولة ، والى نشاط الصلات التجارية ، واتقان أساليب الانتاج وتصارع الطبقات وتعاقب الأزمات ، وأخيراً الى تحسين مستوى الحياة .

إن تنظيم العلاقات الدولية شجع التبادل الثقافي وأفضى الى إنشاء جمهورية الآداب . وكانت النصرانية من عوامل هـــذا التشجيع . على أن اوروبا كانت – بالرغم من تقنيتها الموروثة عن القرون الوسطى – رازحة تحت وطأة الفلسفة الكلامية التي صقلتها القرون الوسطى وتحت وقر الجدل اليوناني وعلم الحساب .

لقد اعتلت اوروبا الى ما فوق شخصيتها ، فغزو العالم الجديـــد تعدى الأوقيانوس وانقلب تجربة اوروبية للاستعمار . ففي أواخر القرن الثامن عشر كان تبديل وجه اميركا على أيدي الاوروبيين قد أحدث أثراً جسيماً ، إذ كان هؤلاء قد أدخلوا الى أميركا الحيوانات والنباتات المجهولة هناك ، وطبقوا التقنية وعلى الأخص العجلة والحركات الدائرة والمجارير والأقنية وهي من مزايا الهندسة المعمارية في اوروبا .

على أن أميركا هي أيضاً ادخلت الى اوروبا أصنافاً من النبات كان لها أثرها في تكييف الحضارة الاوروبية كالذرة والبطاطا والأرز والتبغ : وبهذه الأصناف هزت أميركا الحياة الاوروبية . وقبل مغامرة كريستوف كولومبوس لم يعرف العالم ثورة بحرية مماثلة . إن الانكليز والهولنديين عام ١٤٩٢ كانوا يرمقون إرث المحطات التجارية الالمانية بعين الاشتهاء ولكن سبق أن جرى النقل بين المتوسط والأطلنطيك ، هذا النقل الذي كان مطلع العصور الحديثة .

منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر تحولت أنظار العـــالم بعض

الشيء عن البحر المتوسط . وكان العالم يعيش من أجل هذا البحر ومعه وعلى مثاله . وعندما غدت اشبيلية ثغراً للعلاقات بين العالم الجديد التفتت اوروبا نحو الأطلنطيك الذي كان اوقيانوس تجارة لا اوقيانوس مغامرات. إن الاقتصاد الاوروبي تزعزع ركنه بسبب دخول المعادن الثمينة من اميركا اليه كالذهب والفضة. فارتفعت الأسعار والأجور وسهلت مهام الصيارفة لوفرة وسائل الدفع والتسديد وأمن النقد شر التضخم والهبوط . بالاضافة الى ثراء البورجوازية المتاجرة والمستثمرة،والتي نالت ألقاب الأمارة على حساب انخفاض جناح النبلاء الذين لم يحافظوا على جزء من مقامهم إلا بفضل مبدعي الثروات ونفوذ عائلة هسبورج أسياد الذهب والفضة فيما وراء البحار . إن هذه الانقلابات عوامل صميمية في بواعث ثورة ١٧٨٩ .

على أن هدف أوروبا كان آسيا . فبينما كانت أميركا قد وقعت تحت سيطرة الانجيليين ، وتزيت بالزي الاوروبي ، كانت آسيا موصدة الأبواب في وجه اوروبا ، لا ينفذ اليها طارىء ، فهي التي رفضت الديانة المسيحية ، ولم تعر العلوم الأوروبية إلا انتباه الفضولي وأخذت بعض التقنية الأوروبية من غير أن تأخذ روح هذه التقنية . نعم إن آسيا تطورت ولكن تطورها مستمد من قوتها الذاتية لا من احتكاكها بالأوروبيين ، وهذا التطور لم يحسن جوهر حضارتها لقد كان التفوق الأوروبي حالة لا يختلف فيها اثنان ولكن الرجل الأوروبي كان في موقف المحرك الدائم ، وكان الكفاح مثله الأعلى ، كذلك كان همه السعي والتقدم والرقي والاستطلاع واكتشاف المجهول . وكان لجوجاً ، مقداماً وعنيداً تجاه العقبات ، بينما الآسيوي مستسلماً للأحلام ، معرضاً عن الكدح قانعاً بالقوانين الموضوعة والأفكار المنقولة المجلوبة كارهاً التجدد ، مشككاً بفوائده ، مؤمناً بالأشكال الظاهرية انسانية كانت أم طبيعية وإذا كان المرسلون قد فشلوا في تنصير آسيا فلأن الدين المسيحي اعتنق هوية المدنية الأوروبية .

كان الانفتاح على العالم يتسع ، بينما كانت الحركات الاقتصادية في أوروبا في

القرن السابع عشر والثامن عشر تنمو ومعها النتائج الاجتماعية والفنية .

وقد عظم شأن التنمية على الأخص في ميدان العلوم ووضع التاج على رأس العلوم الاجتماعية . إن رقي المعرفة أثار الايمـان برقي متواصل انتفعت منه الانسانية وحملها الى واحة علياء ، فازدرت الماضي الذي كان يدعوهم الى التنكر للعقائـد القديمة وجحد النصوص البالية وما تتضمنه من حقائق أو مـا يشبه الحقائق ، فكره القديم ونوصبت المسيحية العداء وعظمت كلمة ناكري هبوط الوحي .

إن هذا النكران كان بداية إعلان الأمر الراهن أي الموضوعية ، والمثـــل العليا المعاصرة ، كذلك نادى بحقوق القلب كردة فعل ، ذلك القلب الذي أوضح معالم الرومنطيقية .

إن فيضان الذهب والفضة ، ووفرة المبادلات مـــع البلدان الواقعة وراء البحار رفعا الأسعار الحقيقية . وغصت المدن بالأهلين ، وتضخم عـــدد البورجوازيين وكبر نفوذهم إلا في المناطق الواقعة تحت الاقطاعيات الانكليزية حيث استطاع البورجوازيون أن يرتفعوا الى مقامات مدنية وسياسية مرموقة ، بعد أن اصطدموا بالارستقراطيين والمحافظين أما في فرنسا فالبورجوازية كانت الطبقة الأساسية .

هل في الأفق نواة كفاح الطبقات ؟ وهل حان الوقت لهذا الكفاح ؟ .

١ ـــ ثورة العمال « البروليتاريا »

في منتصف القرن التاسع عشر عاد العمال الى ضمائرهم والى تعاليم الماركسية ، وإلى فصل العالم المسيحي عن عالم العمل ، فوضعت الملاكات الاجتماعية بدلاً من ملاكات الحضارة الصناعية ، ولم ينفك نفوذ الرأسماليـة الاقتصادي والسياسي عن التوغل والانبساط ، ثم جاء التصويت العام يشرك الجماهير بالحياة السياسية ، بعد أن كانت وقفاً على بعض أندية وبعض محظوظين وعلى بعض أحزاب ووجهاء كانوا في عراك دائم مع الأحزاب الشعبية .

إن تباطؤ الهجرة الريفية جعل الاحتياطي من سكان الحقول يتجمعون في أماكنهم حتى الاختناق ، في وقت انفراج أزمة الغذاء وتحسين وسائل النقل وتعديل قاعدة الضرائب . وهذا الانفراج من جراء تخفيض الضرائب أفاد منه تزايد السكان ، ولكن جباية الضرائب شملت الجميع ، جميع الفئات الاجتماعية كل بنسبة ثرواته وموارده .

وشغل بال المزارعين شبح البطالة والبؤس ولا سيما أن الزراعة وقعت في براثن الرأسمالية .

ماذا حل بالجماعات الزراعية المرغمة على الرحيل والهجرة ؟

لقد فرض المجتمع الحر على المزارعين نوعاً من التبعية لا تلحقهم بالمجتمع بل تقصيهم عنه . مثلما فرض قيام أجرة العمل على مبدأ العرض والطلب .

إن مزية المجتمع الخاصة به والناتجة عن الوثبة الصناعية لا تكمن في تسلسل خاص بل في عملية تبعد خدام المجتمع العمليين عن هذا المجتمع النظامي .

إن العامل كان يتمتع نظرياً بذات الأوضاع التي كان يتمتع بها جميع المواطنين . ولم يكن وضعه المادي يختلف عن وضع سواه . إن وضع العامل لم يكن يقاس بمستوى الأجر بل بفقدان الاستقرار في عمله ، بمعنى أن عامل المعمل كان يختلف عن سائر العمال في القطاعات الاجتماعية ليس فقط من ناحية مستوى حياته ، بل من ناحية طراز حياته ، وليس من ناحية شروطه المادية بل من ناحية شروطه الاجتماعية . على أنه أي العامل كان محتفظاً بمشاركته الحقوقية في الحياة القومية ، لكونه كان يقترع وكان ينتفع من حماية القانون ، وكان مساهماً في الحياة الاقتصادية لكونه كان يعمل لخلق الثروات لقاء تعويضات مستحقة . ولم يكن يشترك بالحياة الاجتماعية لأن قيم المدنية كانت من صنع غيره وكانت قد سنت من أجل غيره . ولم يكن يفقه من الحياة الاجتماعية ومن مفاهيمها سوى قشور شاحبة ولوحات متخلفة ملائمة لاستعماله ومزاجه . وهكذا وجد العامل منفصلاً عن لب الأمة التاريخي عائشاً على الهامش ، في

مسكن يذكره بالتشرد والاعتقال !

إن كانت الماركسية قد استطاعت أن تخلق نصاً « للحضارة البورجوازية » و « للقيم البورجوازية » ، فلانها كانت تخاطب أقواماً أحيت بصدورهم ذكرى النفي وهو نفي أوجبه المجتمع الذي كان بحاجة اليهم .

هل علم تكوين المجتمع معقد كما تزعم الماركسية . إن نظرية ماركس ظهرت في وقت كانت تستفيد فيه من مختلف عقد المظاهر . فما معنى كلمة « تحتم » ؟ معناها أن الوجدان الذي اعتمده العمال نظراً لأهميته في المجتمع سوف يتحول الى وجدان محدود والى مرتبة ثانوية من حيث أي نشاط يدوي .

وانتقل عالم العمال من الفكرة الصحيحة التي توفر الشرط المادي للوجود الضروري للمجتمع المكروه من العمال ، الى الفكرة الوثنية التي هي وحدها من إنتاج هذا المجتمع ، أجل لقد أدرك هؤلاء العمال أنهم أبعدوا عن المجتمع الصحيح ، فراحوا ينضمون الى الميدان الوثني الذي هو المجتمع الأصح . وهذا المجتمع الأخير كان أكثر فعالية من ضمير يعي المضاعفات الاجتماعية،إن الماركسية الخاطئة في تفسيرها التاريخي وجدت نفسها صادقة في اعتمادها مبدأ القوة ، فالجماعات الشعبية لم تقتلع من أماكنها ، فالملايين من الرجال نزعوا نمط حياتهم التقليدي ، وانضووا تحت لواء نمط جديد ، ولما طردتهم الطوائف المنظمة ، خلقوا أوساطاً تعاونية . وإذا هم ساندوا الحركات الغوغائية فليس لأن هذه الثورة كانت هي الأخرى تقف الى جانبهم بل لأنهم وجدوا فيها محيطاً وبيئة لهم ، وصلات فصمت عراها شهوة الأرباح وطمع المكاسب . وكانت الكنيسة إحدى أعمدة هذا المجتمع المنظم الثائرة عليه الجماعات الشعبية المقصية عنه . ولم تجب الكنيسة لا بدافع سياسي ولا بدافع فلسفي عن السؤال المطروح سوى بصمودها تجاه الأسئلة التي يطرحها انشقاق العالم . وهذا ما يفسر قوة الأحزاب الشيوعية في البلدان الكاثوليكية في حين أنها غير قوية في البلدان غير الكاثوليكية ، وعلى الأخص في البلدان البروتستانتية ، مهما تكن أوضاعها

الاقتصادية .

وعندما وجد العامل أنه مبعد عن مجتمع تدعمه الأوساط الكاثوليكية انضم الى اكليروس آخر مستكمل التكوين ، شديـــد المراس ، ولكنه يسهل الحياة إيجابياً لا عن طريق العنـــاد والخضوع . فالشيوعية ليست هرطقة إلا في نظر رجال الدين التقليديين أما بالنسبة الى الدين نفسه فهي ديانة .

لقد تمكن الانسان من إطالة عمره ، واستطاعت العائلات أن تضمن لنفسها مصيرها من غير لجوء إلى العناية الربانية ، إن رجل اوروبا يؤمن بتفوق اوروبا . فالآلة التي برهنت على فوائدها في علم الفلك توجت أميرة المعارف العلميــة ، إن العالم«غوس» جدد الاصول الحسابية ، وأن نظريات «كنت» ما ظهرت حتى طلع أحسن منها ، ولم يفتح المجتمع ذراعيه للعلامة صاحب القلم الرشيق بل فتحهـا بوجه المهندس الذي يخلق الثروات .

والحساب القياسي صان الحساب العددي من الخطأ . كما أن العلم أوجد فلسفة واخلاقاً مستقلة عن الله . وركز الحق والقـانون المواطنَ في مقام لائق في دنيا الاقتصاد . على أن ما من فنٍ أو قانون كان في وسعهما ضمان السلام الاجتماعي .

٢ ـــ استتباب البورجوازية

سبقت بريطانيا العظمى غيرها في اصلاح قوانينهـا والمقـاييس والموازين وتبنت نظاماً سياسياً اجتماعياً مقبولاً تجلى في أنظمـة للديون والقروض ، فنشأ مصرف لندن عام ١٦٨٥ ، ومصرف فرنسا غداة إعلان الثورة ، ومصرف ألمانيا غداة توحيد المقاطعات الالمانية على يد بسمارك . وعمت المؤسسات الاقتصادية والتجارية اوروبا من شرقها الى غربها ، أمـــا كون بريطانيا السباقة في مضمار الصيرفة فلأنها أعطت قضية الاستدانة أهمية خاصـــة ، وكان لكل بلد في عام ١٧٩٣ مصرف خاص به ، والجدير بالذكر أن قوانين بريطانيا المصرفية لم تحدث ارتجاجاً كالذي حدث على القارة والذي تناول المؤسسات السياسية .

إن هذه المصارف ، المخصصة طبعاً للقروض كانت بيد البورجوازيين ، كذلك كان الحال في فرنسا ، بيد ان الارستوقراطية بصفتها طبقة ممتازة لم يبق لها أي دور في تاريخ المجتمع .

بينما كان شارل العاشر في طريق النفي ، احتضرت أشباح ، وفقدت طبقة نفوذها وسطوتها ، وحلت محلها طبقة اخرى هي الطبقة البورجوازية . وكان زعيم هذا الاكتساح «جاك لافيت» المنزوع منه لقب النبل والذي اختاره لويس فيليب أول رئيس لحكومة البلاط .

وفهم في عهد الملكية المعلنة في شهر تموز أن الانماء الاقتصادي سوف يستعين بخبرة البورجوازية ، لأن هؤلاء قبضوا على أعنة المصادر التي تضمن خير العطاءات. ان الزراعة لم تكن تدر أرباحاً هائلة . وقد فتحت آفاقاً لأرباح غير محدودة تتضاءل أمامها الأرباح الصناعية والعقارية ، وكان من نتائج النمو الاقتصادي اثراء البورجوازية إثراء ممتازاً عن إثراء الآخرين وتصنيفها تصنيفاً مختاراً عن سائر الطبقات ، وكان من هؤلاء البورجوازيين أصحاب صناعات وأرباب مصارف ، فجنوا مكاسب باهظة ، حتى أن الأغنياء فيهم فكروا بانشاء بورجوازية أسمى من بورجوازية غير الأغنياء . وقد تميزوا بأعمال إقتصادية نسبية ومطلقة تغنيهم عن الثروة الأرضية السائرة في طريق الزوال والهزال . ثم ان الاعداد الاقتصادي قاد إلى اعداد اجتماعي فاشتهرت أسماء أمثال بروغلي ، وشنيدر ، وبيرير ، ولافيت ، ودلوستير ، وبيريــه ، وسايير ، وهوتنغر ، وماله ، وروتشيلد الخ . على أن هذه البورجوازية أفل نجمها من عامي ١٨٧٥ — ١٨٨٠ عندما جبهت ضمير طبقة من طبقات الشعب وعندما اتسع نطـاق الحقوق الانتخابية فاضطرت أن تتخلى عن مركزها أمام القوة الصاعدة والحركة العمالية .

وحوالي ١٨٨٠ لم تكن قد حرمت بعد أي قسط من سلطتها الاقتصادية بل كانت مثابرة على الاحتفاظ بسطوة القابض على الثروات والانتفاع بصيت متولي الأحكام . وقد تخلى الأعيان عن نياباتهم في البرلمانات المحلية وفي مجلس النواب ،

فلم ينتخبوا ولكنهم ظلوا أصحاب سلطان وأسياد حكم قوي .

أما ألمانيا فلم يستهوها الرقي العزيز على قلب ارتور يونغ وبدت كأنها غير ناضجة للدخول في عصر الصناعة ، فمدنها الاثنا عشرة الكبيرة لم يكن سكانها أكثر من سكان لندن أو باريس . وإن ثمانين بالمئة من هؤلاء السكان كانوا موزعين في الحقول. وكانت برلين مركزاً رئيسياً لاستثمار الأراضي الواقعة في الضواحي، وكانت العلاقات بين المزارع والمدينة متينة ، وكانت العادات المحلية الممهورة بخاتم امراء المقاطعات تحدد بالتفصيل صفة العامل والمستثمر ونوع عمله ، ولم تكن الملكية الشخصية وارداً ذكرها في الانظمة المقررة اعتباطاً . ولا شيء كان ينبىء بحتمية الثورة الصناعية أو بحدوث انقلاب على الطريقة الانكليزية . وفي المانيا العائشة بذهنية العصر الأوسط تفجر بركان الثورة الفرنسية واندلعت نيرانها. وعلى طول ضفاف الرين اسس حكام المقاطعات وملك مقاطعة «وستفالي» الادارات الجديدة ، وفرضوا شريعة جديدة ، وشقوا طرقاً وعبدوها ولقحوا أجهزةالحكم بلقاح الادارة الفرنسية .وفي الشرق الألماني ضلت الصورة الاجتماعية القديمة خطى الاداريين الامبراطويين. ان بروسيا قد يصيبها التبديل ولكنها لا تمحى « من الوجود » . ونابليون في شرق الالب يتنازل عن الحكم المباشر . ان التقدم يتم رويداً رويداً ، وفي عام ١٨٣٠ قبل الدستور الحر أن ينضم إلى حكومات الامراء ممثلون عن التجارة والصناعة وهم من الطبقة البورجوازية . وفي انكلترا استولى البورجوازيون على الصناعة ، وفي فرنسا استولوا على الحكم، وفي المانيا اشتركوا بالادارة شبه الاقطاعية .

وهكذا لم تكن الثورات حوالي عام ١٨٣٠ قد غيرت تغييراً جذرياً وجه السياسة الاوروبية وانما كانت قد أدخلت تعديلات جسيمة بفضل الرقي التقني ، والتفاوت في الطبقات الاجتماعية لم يعد واقعاً جامداً معترفاً به بمقتضى مرسوم الهي بل عد فوراناً من الطموح يتخلله النجاح والاخفاق اللذان يضعفان مركز النخبة القديمة مفسحا المجال لنخبة جديدة . أن تفكير الزمن تبدل معناه ،

والشعوب التي وثقت من نفسها عادت تنبش صفحات تاريخها ، ان هـذا العصر يقول «كارايل» ليس بعصر البطولة ، ولا بعصر الفلسفة والآداب ، انـه عصر الآلة التي رفع العلم قدرها فغزت الحياة الأدبية .

٣ ـــ العثور على المستقبل

إن مشاكل الزمن قضّت مضاجع «باسكال» والأذهان الدينية ، وأفضت إما الى الصوفية وإما الى الحرية ، وفي آخر القرن الثامن عشر أصبحت فكرة الزمن إنسانية ، وبطلت أن تكون سراً غامضاً لتغدو قضية تاريخيـــة . فالانكليز وضعوا في حدائقهم مجموعة من العاديات والآثار حيث كانت الأشجار القديـــة تشمخ الى الأعلى ، وأقاموا المآتم البيانية لأتالا [١] . إن مصير الانسان كان موضوع بحث في التاريخ من قبـل أن ينتصر الفرد وحقوقه في الحرية . والشعر والمسرح والفلسفـــة واجهت الدهر وجهاً لوجه من غير خوف ولا فزع . والبورجوازية تشجعت وأنست بالزمن عندما أدركت أنه يعمل من أجلها .

ازاء الظلم والقسوة عند الصناعيين غير المشفقين على الفقراء كان الدأب والتجهيز عنصري تخفيف الشقاء الذي خيّم في بداية الأمر . فالزمن أطـل على الناس بالعدالة بقدر ما كان الناس أوفياء للعدالة . إن هذا الإثبات هو أصل من أصول الرومنطيقية وهو العذر الذي ينهض لنمت « ميشليه » بأنـــه أب العلم التاريخي الحديث . إن «شيلر» غاص في خضم الدروس التاريخية قبل أن يكتب: «غليوم تل» وقبل أن يهز أعواد المسرح ، في منهايم وشتوتغارت ودرسد ، ان « هايدن » يقترح اعتماد الطريقة الكلاسيكية الحديثة لتأليف الألحان والإيقاع. وموزار يدهش معاصريه بجرأة إعرابه عن أحاسيسه. ان البيانو الصاخبة قضت على الآلة الموسيقية الحقيرة ذات الأوتار الضعيفة الوقع [٢] . وقد أوصد بتهوفن

---

١ — أتالا : قصة من تأليف الكاتب شاتوبريان مأخوذة من وحي العبقرية المسيحية .

٢ — واسمها Clavecin وهي آلة موسيقية على طراز البيانو. وقد قامت البيانو على أنقاضها اذ كان صوتها أجش من صوت الآلة العصرية .

عصر اختلاط الأقوام ، ووضع في مؤلفاته عصارة قلبه وهيامه، وهو في تصوير عواطفه يعبر عن الشعور المشترك بين الناس جميعاً. إن جيل ١٧٨٠ كان متحمساً المكان ، وجيل الرومنطيقية تحمس للزمان !

وضع بتهوفن معزوفة فيدليو وإغمون، ووضع موزار دون خوان، والاثنان صورا العواطف تصويراً عجزت عنه الكلمة التي اكتفت بالرسم السطحي، وصعد عصر الأهواء والهيام فوق أسوار المعقول وحدود البرهان! إن الزمن كان شعراً وموسيقى تفجرا من آلام غوته وشيلر قبل أن يشرئبا من أسطورة الأجيال لفكتور هيغو بنحو نصف قرن . وهذا الوقت كان يحتضن الموسيقى الالمانية قبل أن يحاول « برليوز » إدخال الفن الى المعقول بنحو ستين سنة .

إذن فأوروبا من خلال الفوضى تطورت بسرعة فائقة بعد أن أيقظت الروح الرومنطيقية ، وقوّضت صروح الاقتصاد الواهية ، لتحيي واقعاً جديداً من أبرز منجزاته السكة الحديدية .

وهذه الانتصارات لعبت دوراً خطيراً في تنظيم المدى السياسي ، دور عظمة ولكنه غير طريف دائماً ، ذلك أن الأمم التي كانت مهيأة ومستعدة تقوّت بهذه الاكتشافات ، والأمم التي فوجئت بها ظلت رازحة تحت قيود الامبراطوريات العتيقة. وإذا كانت نظرية الوطنية احتلت المناطق الواقعة وراء جبال الألب والرين فإنها تاهت وضلّت عند الشعوب السلافية ، وساعة قيام السكة الحديدية نهضت الشعوب كمن يرغب في ترسيخ حقه في الحياة ، منذ الساعة الاولى وقبل فوات الوقت كي يرغموا النظام العتيد على الاعتراف بحقوقهم وهو النظام المرتقب منذ قرن .

إن سهولة السفر، وتسهيلات البريد والبرق أشاعت في طول اوروبا وعرضها أفكاراً جديدة، وشعارات أثارت تياراً حماسياً عنيفاً ، فيؤلف «اوغسطين تياري» التاريخ على أساس صراع الطبقات، على أن «ميشليه» و «كينه» يحاربان هذا النهج المرهق المحفوف بالشبهات ولكنهما لا يصمان الأذن عن سماع صوت

الشعب المنادي بحقه في الكرامة بل يؤيدان زوال الملكيـــة وتسليم الشعب زمام الحكم .

درس « كينه » أحوال المانيا ، وأنشىء في معهد فرنسا منبر لتعليم اللسان والأدب السلافي تولى إدارته العالم «مكياويكز» في وقت نزلت كلمة وطن وأمة بمثابة فعل إيمان ، وراح «هيغل» يطري أمجاد الدولة ، بينما كان أتباع « كنت » يؤدون لماركس المادة الأولى لتأملاته .

سجّل البحث عن غدٍ أفضل ، وامتزاج الفرد بالاعتبارات السياسية وليدة ثورة ١٧٨٩ ويقظة الضمير من جراء النهضة الصناعية — نقطة تحول في تاريخ الحضارة الأوروبية. ولاسيما أن هذا البحث لم تحتكره النخبة وإنما شاءت الجماعات أن تفصّل بذاتها ثوب الدور الاقتصادي والدور السياسي الاجتماعي . لقـد ولد القرن على اختراع « فولتا » الذي أثبت أن الكهرباء يمكن أن تتولد وتيارها مستديم . وبعد سنة أخرج « ترافيتيك » سيارة بخارية بسرعـة ١٦ كيلومتراً بالساعة . وفي عام ١٨٠٧ قام فلتون بأول رحلة على متن سفينة تدار بالبخار ، وعقبه الاميركي «سافاناه» الذي غامر مدة ٢٥ يوماً في البحار بين نيويورك وليفربول ثم ظهرت خريطة القرن وعليها خطوط الهنـد السوداء والى جانبها إشارة إلى المعادن والصناعات . وكان الحكم الحقيقي يمارس في حومة البورصة ، والتـاج اللمّاع قبعة سوداء طويلة .

على أن الناس — كهيئة اجتماعية وليس نظرية فلسفية — أبوا الصمود وعتقوا الأقدار والفروض القديمة ، ولم ينجوا من الخيبـــة واليأس ، من مثل تفكك العنـاصر القروية في فرنـسا ، وفي النمسا التي تنحت عن مهمتها في إضرام ثورة زراعية ، ومن مثل تباين الغايات والأهداف الاجتماعية والسياسية مما أفضى الى فشل ثورات عام ١٨٤٨ وإلى إفلاس أهداف الكاتب مازينيان الزاعم أنه من السهل الجمع بين مختلف أماني الوطنيين وفرض وحدة بينهم وثيقة العرى .

وبالرغم من الخيبة والقنوط ساد الزمن حادث محقق هو « القضية العمالية »

التي فرضت نفسهـــا كواجب حتمي ووجداني بحيث أصبح العمال في البلدان الصناعية (فرنسا وانكلترا) قطب الحياة السياسية ، فاتحين فصلاً خاصاً من كتاب التاريخ الاوروبي . ومن أجل مجتمع جديد اقترح أصحـــاب المذاهب ذهنية جديدة ، فقال القديس سمعان بقيام نهج مقرون بالسلطة ومعزز بالدولة ، ورأى « فوريه » ضرورة توفير الانسجام في أوساط العمال . وأوجـد « روبير أوين » العمل التعاوني للعمال بينما خلفاؤه أوجدوا النظـام الميثاقي لضمان تحقيق الاشتراكية عن طريق الديموقراطية السياسية . أما اوغست كونت فإنه نادى بالواقعية في حقل العقل والمنطق ، وظن «ستوارت ميل» انه بالإمكان خلق جو معنوي يضمن السعادة لجميع البشر . وبشّر « هربرت سبنسر » بتطور الانسان المتوارث الذي يقوده الى الرغبة في تحسين مصيره معتمداً على مستقبل الصناعة ومستقبل الحرية .

إن نشوء الأجناس وانحدار الانسان وأصله للمؤلف « داروين » ، وحيـاة المسيح للمؤلف « ارنست رينان » لكتب حرمت الانسان الاعتقاد بأن هنـاك شيئاً فوق الطبيعة . وبعد أن تاهت ثلاثة عصور في متاهات البحث والاستقراء وجدت ضالتها: علوم وفلسفات التحدت لتبرهن بالاختبار ان الانسان هو وحده وعاء أسرار الحياة ، والمسؤول الأوحد عن مصيره .

وفي أيلوم عام ١٨٦٤ أعلن تأليف جمعية العمال الدوليين على أثر مؤتمر عقد في لندن وهذه المؤسسة كانت جنيناً في أحشاء المعامل الباريسية ، ثم أرضعتـه لندن من لبانها فولد تحت سمائها .

هل العمل حقاً عنصر الكرامة ومبعث العظمة في الخلائق ، إن العمـــل سيصبح يوماً من الأيام رمزاً مضاهياً للكنيسة . في عام ١٨٩١ قرر المجمع المقدس برعاية البابا لاوون الثالث عشر استنجاد الدولة لحماية العمال . ولكن الحركة العمالية وهي صدى الرغبة في إيجاد مستقبل أفضل ، نشطت ، لا أقول ضـــد إرادة الكنيسة ، بل بمعزل عن الكنيسة .

٤ ــ استعارات غير اوروبية

في عام ١٧٧٠ كانت اميركا تملكها اوروبا . وكانت التقاليد الحقوقيـــة المتعلقة بميثاق الاستعمار تجعل العالم الجديد في حالة التابع للمتبوع ، على أنـه لم يمض نصف قرن حتى فقدت اوروبا جميع ممتلكاتها في هذا العالم الجديد ، ومع هذا ظلت اميركا تدرج على الخطط الاوروبية ومناهجها . وشاء الاميركيون أن يكونوا اوروبيين بكل ما تتضمن اللفظة من مدلول ، وأن ينعموا بجميع المزايا الجميلة لذلك حرصوا على الدفـــاع عن حقوق المولد والولادة ، الأمر الذي لم يضايق التجارة الاوروبية ،فيما خسرته الملكية العريقة ربحته الطبقة البورجوازية المتاجرة ، وكانت الاعتبارات الاقتصادية والمالية مفضلة على الاعتبـــارات الحقوقية والعسكرية . وظلت الأنظمة تسمح للبحارة الاوروبيين ولاسيما الانكليز بأن يواصلوا توغلهم في آسيا ولاسيا في الهند ولكن بصعوبـــة في الصين حيث قاوم الأهلون المشاريع اللاحية .

أما فرنسا فإنها أولت وجهها شطر افريقيا لأنها لم تكن قادرة على منافسة انكلترا في البحار ، ذلك أن نابليون حاول أن يقهر القوة البحرية بالقوة البرية . ضارباً عرض الأفق بالقروض والاعتمادات الانكليزية وبمناعة امبراطورية المياه .

في عهد نابليون جلس بحريان على أريكة الأوقيانوس جلوس المنتصر الآمر ، الأول انكليزي والثاني اميركي . وصدق الظن ان كل نشاط تجاري رهن بالسيادة البحرية .

وهكذا كان انكماش فرنسا على عهد نابليون عن القارة ، والتضامن المستحكم بين اميركا وانكلترا ، من الأسباب العاملة على صبغ الحضارة الاوروبية بصباغ أنكلوسكسوني ، وعلقت الأسر الاوروبيـــة صور الرئيس الاميركي ابراهام لنكولن في صدر قاعاتها ، وهو الرئيس بطل الحرية القائل بأن الناس يولدون متساوين ، والمبشر بأن الحكومة هي من الشعب وللشعب ولأجل الشعب وان

هذه الحقيقة جزء من صميم الحياة .

على هذا النداء أجاب سكان الشرق الاميركي وسكان الولايات الغربية بأن الحرية شرط أساسي الإنسان وان استعباد السود أمر غير مرغوب فيه ، ثم دلت حرب الانعتاق على الأهمية التي يعلقها العالم على دور اميركا العالمي .

إن اميركا قصّت أجنحة صناعة النسيج القطني الاوروبية ، ورمت في ميدان البطالة المئات والألوف من عمال اوروبا (فرنسيين وانكليز) ورفعت الهند الى مصاف الدول المنتجة الاولى .

وساد الأذهان أن خلاص اوروبا هو من خارج حدودها وهذا الظن عززته أزمة القرن التاسع عشر الزراعية والأزمة التي نشبت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . وكان يدور في خلد نابليون الثالث ان تفكك الولايات المتحدة الاميركية ، يخوله – رغم مبدأ مونرو – التدخل بالقارة الاميركية ، وذلك بينما كانت الامبراطورة اوجيني تدشن حفر قناة السويس .

كان الانكليز في مصر والفرنسيون في الجزائر ، وكان الألمان على وفاق مع سلطان زنجبار ، والهولنديون في الجنوب وأرجلهم في افريقيا استعداداً لزحف أبعد ، في أول كانون الأول عام ١٨٨٧ وعلى مشارف دلهي توجت الملكة فكتوريا امبراطورة على الهند .

أما دزرائيلي اليهودي الأصل فقد آ ل على نفسه أن يكون لانكلترا مجموعة من المستعمرات ووافقه على الخطة ليفنكسن ، برازا ، وستانلي بحجة أن سلامة المملكة تتطلب سلامة المواصلات لذلك جعل من سنغافورة محطة تجارية بين أوروبا والشرق الأقصى ازاء باتافيا عاصمة الهند الشرقية المستعمرة الزيلندية منذ قرنين ونصف القرن . ان حب المغامرات النائية استهوى قلوب الاوروبيين .

ليس لأول مرة تحقق أوروبا أرباحاً من بضائع مجلوبة من الخارج ، ففي القرن الحادي عشر والثاني عشر عندما ورث الاسلام حضارة الاسكندر

ومدنية الهيلينيين ، ويوم شرعوا بترجمة الكتب اليونانية القديمة وأحيوا تعاليم أرسطو ودرسوها بتعمق وتحليل ، ودفعوا بعلم الحساب والطب الى الأمام ، وتبينوا خفايا الكيمياء العصرية الخ ، أجل عندما قام المسلمون بهذه الأعمال الجليلة أقبلت أوروبا تجني ثمارها على نطاق واسع .

إن أطباء ميلانو في القرن الرابع عشر كانوا يطالعون ابن سينا في ترجمة عبرية. كما ان مدرسة ساليرن وكلية مونبليه احتضنتا الطب اليهودي العربي .

على أن هذا الاقتباس الذي استساغته اوروبا لم يغير جوهر النفس الاوروبية ولم يكن له نتائج في مجال المدنية . ويمكن أن يقال مثل هذا القول عن « إعلان الحقوق الذي سبق عام ١٧٧٦ دستور فرجينيا الذي اتخذ شعاراً : ان جميع الناس أحرار بطبيعتهم ومستقلون ولهم بعض الحقوق . ومعنى هذا إقرار نص حقوقي لفكرة ناضجة في أوروبا منذ زمن بعيد . وهذه الفكرة تبناها في الرابع من تموز المؤتمر المعقود في فيلادلفيا ، وتحمس لها الأوروبيون فانطلق البولوني كوسيوسكو والألماني ستوبن والفرنسيان سيغور ولافاييت الى الولايات المتحدة. إن فكرة اوروبية تستأثر بأوروبا عبر الأطلنطيك .

على أن إثراء العهد العصري لم يتم على الشكل السالف . ذلك ان ما جلب من أميركا كان عظيم الأثر على أحوال الحياة الأوروبية. فعلى أثر الأزمة الزراعية عام ١٩٣٠ ، وانخفاض الدخل ، أسهمت أميركا في إقالة عثرة أوروبا ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية بحيث تجلت الروابط بين ضفتي الأطلنطيك ، تلك الروابط التي بدأت اقتصادية ثم اتسمت بطابع اجتماعي وسياسي ونفساني . ثم دخلت التقنية في صميم الحياة اليومية ، الحياة العملية أي في أسباب الراحة العصرية (سينما – تلفزيون) فالمجلوبات الأميركية كانت كثيرة في شتى الميادين سواء من حيث العلوم البشرية أو علوم الأشياء ، أو علم النفس وفن المسرح .

ولولا هذا المجلوب الأميركي لما كتب لبعض الأعمال أن ترى النور في أوروبا. هذه حقيقة ثابتة مثلاً في الحقل الأدبي وعلى الأخص في فرع الرواية . فالقصة

التي كانت تدور حول شخص اضمحلت أمـــام نوع جديد . وبرزت أسماء مشهورة : تيبو ، بيدنبروك : بانكيه ، فورسيت وشرول أو ما يسمونه وصف « اورا » : الجبل المسحور ، وشاعت الرواية فيما وراء الأطلنطيك التي تدور حوادثها حول تاريخ الجماهير والأسر مما خلق النوع المسمى الإجماع لواضع أسسه جول رومان : وإن كان هذا النوع سبباً غير كاف لذيوعه وتضخمه . إن على الباحث أن ينظر الى تعقد المشكلات في بلد يتزايد عدد سكانه ولا سيما في المدن ويطغى على طاقة أوروبا ويفوق قدرة الاستيعاب . ثم لحظت أوروبا أن العلاقة بين الفرد والجماعة مشكلة لا تمت بصلة إلى مفاهيم الماركسية فحسب بـــل إلى فوارق اجتماعية ترافق تطور الرأسمالية . إن معظم الأفكار الأوروبية بصدد علم النفس تأثرت بالمجهود الأميركي الذي أحدث بدوره ردة فعل إذ تنكرت أوروبا للتقنية المستوردة ، وفترت حماستها للإنتاج المستخرج من هذه التقنية ، فكان أن ظلم الجهد الأميركي والتقنية الأميركية في حين أن غرضها كان التوفيق بين فلسفة الانسانية الأوروبية والتقنية الأميركية ، وأصبح الواقـــع الأميركي موضوع تفكير وجدل أوروبيين، في الوقت الذي اشتدت فيه الملاقات الدولية بحيث صار من العسير التمييز بين ما هو أميركي مجلوب وما هو أوروبي عريق ، وأصبح الأطلنطيك مـا كان عليه المتوسط في الأزمنة الغابرة أعني رمز الثقافة وموردها !

يثور رامبو على مدنية تشاد فوق قاعدة التقليد . وراح كيبلنغ يبحث عند السفساطيين عن علاج يشفي اوروبا من داء القلق والهموم. من هم « رونتجن » ، «بكريل» ، «آل كوري» ، «ريترفورد» ، «اينشتين» ، «فرويد» ، «برغسون» و «بول فاليري»إنهم رواد ثقافة اوروبية اميركية، ثقافة أطلنطية، تمثل تلاحم الانسانية الاوروبية والمدى الاميركي .

والجدير بالذكر ان روسيا من جهتها أثرت على الفكر الاوروبي ، ففي القرن التاسع عشر سطعت أنوار حركة أدبية غنية أدهشت اوروبا المثقفة وأطربتها ،

قوامها « نكراسوف » ، « بلوك » ، «غوغول » ، «تشيكوف» ، «تولستوي» و « غوركي » وسواهم من حملة الأقلام الذين غذوا الإحساس الاوروبي . كذلك في الحقل الموسيقي ، إذ تخلص « غلنكا » من التأثير الايطالي والالماني ، فوضع ضرباً من الأنغام والإيقاعات الجديدة ، المستقاة من مصادر فولكلورية ، أما أبطال هذا التجدد فهم : « بورودين » ، « موسورسكي » و « تشايكوفسكي » . وإلى جانب هذا لمع نجم الرقص الجماعي المعروف بالباليه المستمـــد من الرقص الشعبي ، والذي كان له شأن عظيم كحرفة راقية . ولكن هـذا النفوذ لم يخرج عن نطاق الشعور ، ولم يتبدل في النفوس ولم يقوّض كيان الذهنية ، ذلك أن روسيا لم تكن جغرافياً محددة التخوم في آسيا، وكانت واقعة تحت وطأة المغول فعالمها غير عالم اوروبا .

منذ عهد بطليموس ، كان الاعتقاد سائداً بأن تانايس أي الدون[1] يفصل قارتين مختلفتين .

ولم يرسخ السلطان الروسي قدمه إلا في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢-١٥٠٥) فبعد أن اقترن بابنة أخ امبراطور الاستانة رسم صورة النسر الذي كان شعاراً للملوك البيزنطيين على الأسلحة وعلى أبواب قصوره. ثم حدثته نفسه بالمطالبة بإرث الباليولوجيين. وكان على أهبة أن يتم له ذلك .

أخذ الغربيون يتعرفون الى الروس والى روسيا ، بينما كانوا يعززون صلاتهم بالاميركيين، وكان اكتشاف امبراطورية القياصرة متفقاً واكتشاف امبراطورية الازتيك ، وامبراطورية الإنكا .

ولكن العلاقات بين اوروبا واميركا كانت تجري على أساس المشاركة ، أما بين اوروبا وروسيا فكانت ترتدي طابعاً آخر . نعم انـه من التجني أن نتهم روسيا بأنها كانت تهدف الى إنشاء امبريالية روسية وانها كانت تحلم ببعث روما الثالثة بواسطة اكليروسها وأديرتها . ولكن هذا الحلم لم يكن سهـل التحقيق في

١ - نهر في روسيا يصب في بحر ازوف .

السياسية الخارجية ، وقد كشف لأوروبا أوراق روسيا، مما حمل كارل ماركس أن يقول: ان النفوذ الذي ربحته روسيا في اوروبا بالمباغتة وفي مختلف الأزمنة أرعب الشعب الغربي الذي أذعن مُرغماً لهذا النفوذ ولم يقاومه إلا جزئياً .

وقد رافق السحر الروسي خوف لازمه كظله ومشت السخرية مع أصوات الشعب المتألم ، وهزأت النخبة من عظمة روسيا وعدتها مادة إغراء وطنطنة فارغة .

دام الحذر وانعدام الثقة بين أوروبا وروسيا وفي عام ١٧٨٩ وضعت أوروبا يدها على أناس وعلى جماعات تهيء لليوم العظيم ، بحجة أن التاريخ يتجه نحو حل مصيري يحتمه القدر . وهؤلاء الرجال كانوا يستعدون لليوم المرتقب اما كأبطال أو كقابلات لولادة التاريخ ، وكانت حركتهم متجانسة متواصلة ومتراصة وموحدة: اسمها حركة الإنقاذ. ويبدو أن ثورة البلشفيك عام ١٩١٧ كانت نواة هذه الحركة من أبرز خصائص المفكرين وأصحاب العقائد الإنقاذية منذ روسو حتى ماركس مروراً بالقديس سيمان وفوريه وهي ترمي الى أن يكاشف الآخر برأيه وأن يلاحقه على أساس تصفية حسابه مع الديانة . فالجميع كانوا متفقين على أن يجدوا بديلاً عن الدين .

على أن هذا الإنقاذ كان وليد تطور بعض المذاهب قبل عام ١٩١٧ التي ولدت هي الأخرى على ما يبدو من أهداف روسو السامية ، ومنذ عام ١٩١٧ تراءت هذه الأهداف وكأنها الدعوة لشيوعية عالمية ، ومن هنا شاعت المقطوعات في الأدب والموسيقى الروسيين ، اللذين حركا الشعور الأوروبي . وصارت الشيوعية أمل الملايين من أبناء القارة ، وتغلغلت فكرة الإنقاذ في صلب الشعارات الأوروبية ، ثم عادت الشيوعية لترمز إلى أكبر فشل وأعظم قنوط ، وإلى نوع من العذر الكاذب ، وابتعدت عن محجة المنطق والصواب ، إنها ظاهرة جاءت من عالم غريب .

ما هي حدود أوروبا الشرقية ؟

إن أوروبا في رأي بعض الغيُر على أمانـــة الحقائق السياسية لا تمتد الى الأورال ، ووحدتها لا تقوم على الوحدة العنصرية ، إن حدودهـــا هي قبل الأورال ، ولكن أين ؟ إن العلاقات بين السلافيين والجرمان رسمت حدوداً قلقة غير جلية كي يصح الركون اليها. إن القارة الأوروبية وراء خط هامبورغ– تريستا تتضخم ، وكلما تقدم المسافر في هذا الاتجاه يخيل له أنه أصبح غريبـاً عن نطاق الغرب والعـــالم القديم ، إذ تطأ أقدامه مجموعة جغرافية واسعة ، من جبال كثيفة الأشجار إلى وديان تنتهي الى واحات شاسعـــة وطرق نادرة وسكك حديدية متقطعة الخطوط والروابط .

خلال عدة قرون تبدل الغذاء ، وقام الطعام الساخن كالحساء مقام الخبز ، وظهر شيء مؤلف من الملفوف والشمندر اسمه البرسكز كما ظهر سائل للشراب اسمه البراغا . واتسعت المدن ، وشيدت الكنائس حسب الطراز البيزنطي ، ولكن الشوارع ظلت قذرة . وفي هذه المدن الآهلة بالسكان كان الشعب اليهودي بأكثرية متغلبة مراراً قابضاً على عنق التجارة ومرة على زمام الصناعة اليدوية يتكلم اللغة العبرية القديمة ويسكن في أماكن الجوء والانحباس . وكانت بودابست عشاً من طراز اوروبا الوسطى في وسط حقول من الطراز الشرقي . وكان لألمانيا وجه لاتيني وظهر بلقاني . وكان التشيكيون في براغ يختلفون كثيراً عن السلوفاكيين .

وإلى جانب الحدود الإقليمية حدود الكنيسة ونفوذها. الكنيسة الرومانية المصطدمة بنفوذ جمعيات دينية أخرى ناهيك بالفرق بـــين منطقة الملكية الزراعية الخاصة ، والمنطقة الزراعية الجماعية ، والحرية في الاجتياز من منطقة الطبقة الوسطى إلى أخرى لا طبقة وسطى فيها فوارق وامتيازات متنافرة ، بالإضافة إلى أصقاع متمدنة وأصقاع مناخية ، والتنقل من هنا الى هناك لا يصور على الخريطة إلا تصويراً تقريبياً مبنياً على الاتفاق والاصطلاح .

عدوى أطلنطية ، مناهضة للعدوى الروسية ، على أن الثانية لم يهضم فيهـــا

الاوروبيون إلا الناحية الموسيقية . إن هذه التيارات تغير بعض نواحي المدنية الأوروبية التي هي غير مدينة لآسيا وإفريقيا وأميركا الجنوبية إلا بشيء طفيف بالنسبة لما هي مدينة به لتلك التيارات . فالنخبة وجدت في هـــذه الغنائم عناصر فكرية أسهمت في نمو معارفهـا وتصويب تفكيرها في تفهم الزمان والمكان تاريخيـاً . انه كان لديانات الشرق الأقصى ، والفن الزنجي مثلاً بعض التأثير في بعض المحافل ، ولكنه تأثير لم يحدث ثغرة في صفوف السواد ولم يلمس قلب المدنية الاوروبية .

٥ ـــ وطن الأب أو وطن الابن ؟

غداة الحرب العالمية الثانية تساءل بعضهم هل من الحق التحدث بالدفـاع عن اوروبا ؟ انهم كانوا يقيسون هذه القارة عـــا أسموه الوطن : بلد الآباء ، واستفهموا عما إذا كانت اميركا وروسيا وطن الأولاد وهي الأرض التي كان « نيتشه » يتوق اليها . عوامل سياسية دخلت في الحساب ، وتناءى الكثيرون كلمة « ارنست لافيس » :

« ان القدرة على تسيير خطى التاريخ غير أبدية . فأوروبا التي ورثت هــذه القدرة عن آسيا من ثلاثة آلاف سنة لن تحتفظ بها دائماً » .

كما تناسى القوم كتاب « ألبير دومانجون » : أفول اوروبا وغروبها .

بين اميركا وروسيا كانت اوروبا منطقة حرام . ولكن في هذه الفترة علت صرخة الروح الاوروبية ، صرخة تتنـــاول السلاسل التي تربط « اينشتاين » «بأوقليد» ، و «هيغو» « بهومير » وبينما الثقافات الشرقية لا تمتـاز بالاستمرار والدأب والمواصلة ، ولا تؤمن إلا بالحاضر وبالخلود ، ولا تسعى الى التوفيق بين الحي والعدم ، كانت الثقافة الاوروبية منقـادة بحب الجري والبحث ، تسيطر عليها فكرة الانسان لمعرفة ما من شأنه أن يحييها أو أن يميتها .

وهذا ما يعلل كون الماركسية لم تعش العقيدة وإن كانت قـد حافظت على

قيمتها كأسلوب تقارب بين القضايا الاقتصادية والسياسية . إن في الماركسية مضمون القدر المحتم ، وفورة الارادة ، وفي عام ١٩١٧ تغلب القضاء المقدر على الارادة (الأول حتمية التاريخ والثانية إرادة الانسان في تدبير نفسه بنفسه) .

وتساءل الناس أحقاً مات الانسان بعد أن نادى « نيتشه » نداء مفجعاً ان الله قد مات ؟ ونادى أندريه مالرو « في نهاية القرن التاسع عشر : ان صوت «نيتشه» استمار العبارة القديمة التي انطلقت من شبه الجزيرة: الله مات ثم أعطى هذه العبارة نبرتها المفجعة ، لقد عرف القوم ما معنى هذا القول . ان معناها نشوء مملكة الانسان . أما نحن فالسؤال المطروح علينا اليوم هل الانسان مات أم لم يمت على أرض اوروبا العريقة في القدم ؟ ان فوق ما نرى ، وفوق هذه المدن الخيالية والمدن الاثرية يغمر اوروبا وجود أوهى وأفظع، ذلك ان اوروبا المكتسحة والدامية ليست بأحسن حالاً من جبين الانسان المجروف الدامي الذي شاءته اوروبا جميلاً رائعاً » .

ومن غير عناية بالجانب التجميلي حاول « ألبير كامو » أن يخلق رجلا على مستوى الرجال يشاطرهم حياتهم . أجل ان هذه الاسئلة كانت مطروحة قبل الحرب العالمية الثانية .

ان اكتشاف نبتون[1] على يد «لوفيريه» عام ١٨٤٦ سجل لدنيا العلم وأهدافه أسمى ذروة في الارتفاع: أنطق الكون بالرسوم والحركات بمقتضى البرنامج الذي رسمه ديكارت وحسب تفسير الكون الميكانيكي الذي قرر سطوة المادة وبوأها المقام الأعلى .

إن نظرية « اينشتاين » ثم نظرية « كانتا » والعلاقات المضطربة لصاحبها هايزنبرغ ، واستنتاجات لويس دي بروغلي شيدت هذا الصرح الباهي . هذا ولا نكران ان الدروس اللاحقة أبانت ان التردد ما هو إلا نتيجة افتقار وسائلنا الى المعرفة والى الآراء ، على أن الدروس الجرثومية ودروس الأشياء أضيفت الى

---

١ – Neptune : إله البحر .

دروس الاخصائيين بالعلوم الانسانية المتجددة منـذ السنوات الاولى من القرن التاسع عشر ، وزرعت الشكوك في النفوس ولم تقع الحرب إلا وأزمـة الفكر سائدة في الجو .

وبدا أن جوهر القيم الاوروبية لا يكمن في الرأي القائل بنكران الوحي ، ولا هو من صنع الرقي بل أنه صدى إرادة وضمير ورغبة في الاكتشاف. فالحضارة الاوروبية نهضت على ايمان الانسان . ولوثوق الاوروبيين بأن الفلسفة الانسانية هي التي ترافقها الفواجع ، جابهوا العالم المجهول الذي فتح الطريق أمـامهم على تعاقب القرون. كان الموت الواحد يحني رقـاب البشر ، ولكن هؤلاء نهضوا من عثارهم وتوزعوا ليلاً ، حسب قول « مالرو » ليبشروا بما في العالم من معضلات وفوضى ، ولينقلوا اكتشافاتهم بدلاً من أن تبقى أسراراً خافيـة ، وليحاولوا أن يؤسسوا بانتصارهم الموت عالمـاً زائلاً ، وليعلموا أن الانسان لا يولد بمحض عزمه بل بالتفاعل مع العالم . قال « مالرو » : سيأتي يوم بعـد أن يكون المؤرخون عالجوا فيه بيزنطة وروما وغزوات البرابرة وجميع الفواجع التاريخية التي عمت أنحاء العالم ، ان هؤلاء المؤرخين يعتبرون ان الأزمات لا تمثـل إلا شيئاً ضئيلاً الى جانب الروح الثائرة التي تخاطب الأشباح المهددة والضاغطـة عليها بقولها : إننا نستعملك مثلما نستعمل سواك لكي ننقذ الانسان من التراب.

في نظر المؤمنين ان حوار فلسفة التحول ونظرية البعث تتحدان بصوت الهي علماً منها بأن كل ما في الانسان من سمو ملك القوة الربانية . أمـا غير المؤمنين فإن الحوار يتحد مع صوت انساني علماً منهم أن كل ما في الانسان من سمو هو ملك الانسان . إن تاريخ الحضارة الاوروبية يعتصم بالقطبين .

الخاتمة

في عام ١٩١٤ كان الأوروبي إذا تصفح خريطة جغرافية يفخر بسعة الأرض التي يسيطر عليها : أي افريقيا كلها تقريباً ، وقارة اوقيانوسيا ونصف آسيا وربع أميركا . وكان من حقه أن يزعم أن القرن الحالي كان قرنه وملكه ثم يتذكر نظرية مالتوس فيغتبط لكونها لم تصدق وقد كذبها الواقع ، ان الكرة الأرضية ضاقت عندما بدأت الأنظمة الشمسية تكتشف وحين أخذ اللامحدود يصغر . إن «غوته» لم يتمكن من أن يسبق أرسطو ، وفجأة تبرز الآلة البخارية التي قال فيها برغسون أنها تستعمل لتحديد عصر من العصور . وسترجع الى المؤخرة المدنيات المصابة بالعجز ، والمدنيات التي لا تملك سوى طاقة العضلات والهواء .

وفي ذات الوقت وفي ذات الأحداث اعتلت العروش الشعوب التي استولت على الأرض المليئة فحماً حجرياً الممتدة من بنسلفانيا الى دونتز ، فتعاون المعمل والمنجم ، وتجسد الحلم بحياة أفضل ، وصارت الحرب خطأ تاريخياً ووعد الجيل الحرية بتألق خط الانسان، إن عصر روتشيلد وماركس انتهى بنهاية أينشتاين ، وملأ قلب جوريس وروكفلر نسمة تفاؤل، ومدت الرومنطيقية رواقها على الملأ قبيل انتصار البخار والبورجوازية الرأسمالية . واتفق الدهريون والتجريديون على مجابهة مدنية الحديد والذهب . وشعت أنوار المعرفة تحتضن الرجاء والأمل .

والموضوعية قدمت للإنسانية مذهب الاعتماد على نفسها من دون أن تفقد البداهة الفردية حقوقها . إن الجهد الفردي تجلى عندما توافق رد الفعل غير الجازم واهتزاز ركائز المذاهب الثابتة ، التي تحولت من عنف الى إبهام. وعندئذ بدت الثقافة الأوروبية متراخية غير متينة . لقد تأخر برغسون وأينشتاين عن كلود برنار وعن برتلو وصار من اللازم إعادة النظر بالاكتشافات وبمعنى التقدم الحقيقي .

إن كبار الرأسماليين وكبار المساهمين بالاقتصاد الحر كانوا لا يزالون ربابنة الحركة الضرورية عند هبوب العواصف والرياح ، ومع هذا تصاعدت الماركسية بفضل حنجرة جوريس ويراعة لينين . على أن عبقرية اوروبا المولدة لم تجبن فأضاءت المصباح المنير المشعل ، الى جانب النوة المحركة ، الى جانب السينما والتلفزيون وابتدعت السيارة والطائرة واخترقت حجب الذرية وأدركت سر النسبية مكاناً وزماناً .

ومع توالي الزمن يمكننا أن نعلن السؤال الذي طرحه بول فاليري : هل تبقى أوروبا ما هي ، أعني القطعة الثمينة من الفردوس الأرضي ، واللؤلؤة في العالم والدماغ في الجسم ، ثم يتساءل : أو تصبح شيئاً لا يذكر ، مثل ذنب أوروبا ؟ هذا اليوم سيأتي ساعة تلاقت الجيوش الأميركية والجيوش الروسية على الألب فماش زمن العالم المختصر .

كل الظواهر كانت ضد أوروبا ، ولكن الحوادث أثبتت أن هذه الظواهر كذابة وخلابة ، إن عبارة الضمير الأوروبي معناها ضمير واضح راهن وناطق وحي .ولكن إذا فكرت اوروبا مثل هذا التفكير فكأنها تفكر وحدها لنفسها من غير الأخذ بالاعتبار ما يفكر الآخرون ، أليس من الأفضل أن نبحث عن أوروبا عملا بدلاً من اوروبا صورة؟ من المستطاع تحليل الروح الأوروبية عن طريق شكل علاقة الانسان بالانسان والانسان بأقرانه لا عن طريق فكرة أو صورة .

من السهل إيجـاد شيء منطقي أوروبي ، أوروبي شخصي ، وذلك بتقليب مؤلفات من نوع دروس في الفلسفة والتاريخ لواضعهـا هيغل ، ومن نوع دروس الحضارة الصينية ، وروايات مالرو أو محاولات كامو ، إن المقصود هو التعريف بين الأنا والعالم بين فكرة الموضوعية والحقيقة .

في بعض الحضارات لا أثر لفكرة الحقيقة ، إن العالم كناية عن منجم أو هوة على الإنسان أن يأوي اليها كمكان كائن لا كشيء يبحث فيه عن تقيم الحقيقة وفي مجال خط الذكاء ، ينسب الى فكرة الحقيقـــة مصدر الضمير الغربي ، كما ينسب الى هـــذه الفكرة التآلف العلمي والتقني الأوروبي مع أصول العمل الأوروبي .

وفي عداد الاختراعـات الاوروبية : العمل بمعناه الذي أعلنه هيغل ، ثم الدولة لا كواقع تجمعي بل بيئة انسانية تشرق في ساحتهـــا شخصية الرجل المواطن .

إن صيغ العقل والسلوك الروحي أو الإلحادي كانا في أزمة ، أزمة الضمير ، أزمة هاجس الحقيقة . فالعالم الغربي اتكل مدة قرنين أو ثلاثة على حقيقة دائمة ، وهي فكرة كان يعرف مدى ميوعتها ويعيبها .

فهل كان العلماء بعيدين جداً عن نقد العلوم مثل « بوانـكاريه » ؟ قـــد لا يكون ذلك ، ولكن مناقشة قضية الموضوعية العلمية كانت – بفضل قابليتهـا واستعدادها – جزءاً من المكاسب الثقافية الاوروبية . ذلك أن الاوروبيين عاشوا عهد « أغنية اورفه » ، وعصر « ميسان » وفاجعة « أشيـــل » وعلم هندسة «اقليدس» ، ثم عصور الأناجيل وترانيم الجيورجيين و «ماذا أعلم» للعالم « مونتاني » ، وآلام « باسكال » وفاجعة « بتهوفن » والأمل الاشتراكي .

إن القيم والذخائر التي ولدتها اوروبا وجسمتها ووزعتها على العالم عن طريق مغامراتها الخاصة ، فرضت نفسها في دنيا الواقع ، وفي دنيا المجتمعات .

إن من يدرس تاريخ المدنية الاوروبية يقع نظره على خريطة جغرافية فيها:

تسوية المضلات كي تستقيم ، تحديد الأرض ، تصويب الأسماء ، توزيع المساكن الخ . وفي وسع دارس هذه المدنية أن يضع تاريخاً صحيحاً للديانة وأن يعمد الى تفصيل مراحلها .

إن الحضارة الاوروبية كما تبدو لنا وكما بدت غداة الحرب العالمية الثانية هي حصيلة رواسب الألوف من السنين وانها قد تغلغلت في رداء المنطق وهو منطق الاستمرار وان التناقضات التي تربى في متون وحواشي الحضارة الاوروبية هي من منطق الاستمرار والدوام . أجل ينبغي الحذر من الشعارات المضرة ضرر ما يسمونه دروس التاريخ ، ولكن بعض هـذه الرموز والشعارات تؤلف منارات أطراها « بودلير » أيما إطراء .

إن لهذا التباين وقـل التناقض معنى. فما هي الصلة بين ربيع « بوتيشيلي » والليلة المقمرة لفن « غوته » ؟ بين الحدائق التي قال عنها « أراغون » انها تشابه الكتب المقدسة في القرون الخالية ، والمحطات الشامخة المعلنة في القرن التـاسع عشر . نعم ، ما هي الصلة بين أنغام « شوبان » العاطفية الحالمة وهـذا التفكك والبتر عند « بيكاسو » ؟ ان ذات المدنية أنتجت تلوينات القرون الوسطى مثلما صنعت أحواض روتردام . إن نوافذ شارتر الزجاجية الملونة لا تزال محتفظـة بأمجادها ولكن أنقاض بور رويال دي شان كفت عن أن تكون قطعاً من متحف ، ذلك انها تحيا على صعيد الشهادة وعلى صعيد المغزى بحيث انها تغمر حاضرنا. إن الحجاج الطلاب في شارتر وبعض المظاهرات السياسية تفسر بكون الحاجة ماسة الى الانطلاق الى ما وراء الشيء المحدد . إن الطرفين متفاهمان الآن والواحـد يكمل الآخر ، لأن تاريخ العقل الاوروبي هو تاريخ ثورة دائمة اللظى ، ثورة رجل ضد كل ما يلوح منه أنه عنصر إرضاخ وإرغام لرميـه بأحضان القدر او لانتزاع طموحـه الى الكرامة . و هذا التاريخ لم يقتصر على النخبة المنعزلة عن السواد . إن التمرد والعصيان باسم ما للانسان من عظمة هما ذهنية طبقـات الشعوب الاوروبية جمعاء .

وإذا كان الاوروبيون غداة الحرب العالمية الثانية رفضوا كمجموعة شعوب ما يحسبه الآخرون حتمية التاريخ – أي جعل اوروبا منطقة حرام أو رأس آسيا أو بمثابة متحف – فلأن رفضهم ينبع من صميم وجودهم . ومؤهلاتهم المرتكزة على أساس مجتمع خاص يمتاز عن سواه بمزايا منها عظمة الطبقة الوسطى ، ومنها علاقة المدن بالحقول والمزارع ،ان معنى البقاء والاستمرار والثروة الإجمالية والفردية والخدمات التي تؤديها الجماعات للأفراد كل ذلك جعل رفض الاوروبيين رفضاً صادراً عن المجتمع كله .

ومع هذا حدث تبديل في هذا التاريخ ،فالاوروبيون أدركوا شدة ارتباطهم العملي بالهيكل الأطلنطي ، أجل ان هذا الارتباط ليس وليد الحرب ، ولمعرفة منبعه لا بد من الرجوع الى السنوات الأولى من القرن السادس عشر . على أن هذا التضامن مع الأطلنطي لم يتبلور ولم يدعم إلا بعد أن شعر بالأخطار التي تهدد كيانه ولو كانت الشيوعية نظاماً سياسياً جديداً ، وتفسيراً جديداً للعلاقات بين المواطنين ثم بين المواطنين والدولة ، وإبدال نمط اقتصادي بنمط آخر لأمكن إثارة الجدل والحوار . ولكن الشيوعية تريد أن تفرض ثقافة وأن تكيف الرجل الجديد .

والأوروبيون باسم الثقافة وباسم تعلقهم بفكرة الانسان صموا آذانهم عن الاستجابة للنداء الذي وجهته الدولة . إنهم لم يرفضوا الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، بل الحوار الرامي الى القول أن الغاية تبرر الواسطة ، وإلى إكراه كل مواطن على وضعه بين حجرين : أما أن يمثل دور الجلاد أو دور الضحية . وأخيراً فان الاوروبيين يأبون الثورة .

يقول كامو : إن الاعتدال ليس مناهضاً للثورة بل إن الثورة هي الإجراء الذي يأمر بالثورة ويناضل في سبيلها ويعيد شبابها عبر التاريخ وفوضى التاريخ .

إن الاعتدال وليد الثورة ولا يستطيع أن يعيش بدونها . إن الإنسان

يقوى على ضبط ما يجب ضبطه وعليه أن يصحح في الخلق كل ما يجب تصحيحه. ومع هذا فالصغار يموتون ظلماً حتى في المجتمع الكامل.

إن كلمة « لماذا » التي أطلقهـــا ديمتري كرامازوف قوية الصدى : « الفن والثورة لا يموتان إلا بموت آخر انسان ».

إن إمكان وقوع الثورة ، هذا الحق المعبر عن عدم الخنوع والاستسلام هو الذي أحب الاوروبيون الإحتفاظ به والحرص عليه غداة الحرب العالمية الثانية. وإرادتهم هذه قادتهم الى الوثوق بصحة ارتباطهم بمجموعة أوسع من أوروبا ، بالأطلنطيك المتشابك ، بحيث أن مقدمة معاهدة واشنطن الموقعة في ٤ نيسان سنة ١٩٤٩ تسجل تاريخـــاً عظيماً في سجل الحضارة الأوروبية : يقظة الضمير بامتداد الحضارة في سماء الأطلنطيك . وأخيراً فإن هذه الحضارة هي حضارة الحوار ، والمهم ليس الانتصار على الخصم لكي ينضوي تحت لوائك ، بـل المهم أيضاً أن تحترم هذا الخصم كي يظل الحوار ممكناً.

إن أحسن ما في بطون تاريخ الحضارة هو التأكيد بمختلف الأشكال أن لكل الحق في البحث عن الحقيقة التي يؤمن بهـــا لأنه لا يوجد حقيقه واحدة بل حقائق على قدر ما هنالك ضمائر ووجدانات !!

فهرست

الصفحة

منشورات عويدات ١٩٨٣/٧٦٠

بيروت – المطبعة التجارية – ١٩٧٠

تاريخ HISTOIRE

PEDAGOGIE
ENSEIGNEMENT

تربيـــة وتعليـــم

BEAUX - ARTS فنون جميلة

حقـــوق DROIT

Claude DELMAS

HISTOIRE DE LA CIVILISATION EUROPEENNE

Texte traduit en arabe
par
Toufik WEHBE

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

زدني علماً

- تاريخ السوسيولوجيا/غاستون بوتول (٣٦)
- تاريخ العرقية/جان بوارييه (٧٥)
- تدريب الموظف/حسن الحلبي (٥٢)
- التقمص/أمين ظليع (١٦٨)
- التوجيه التربوي والمهني/جان درافيون (١٤٥)
- الجريمة/جان ماركيزي (٢٠٦)
- الجماعات الضاغطة/جان مينو (١٠٢)
- الجوع/ميشال سيباد وهنري غونال (١٤٦)
- الحرب الأهلية/شارل زورغبيب (٩٦)
- الحركة النقابية في العالم/جورج لوفران (١٩٢)
- دينامية الجماعات/جان ميزونوف (٧٤)
- سوسيولوجيا الأدب/روبير اسكاربيت (٥)
- سوسيولوجيا الحقوق/هنري ليفي برول (٨٣)
- سوسيولوجيا السياسة/غاستون بوتول (٦٨)
- سوسيولوجيا الصناعة/برنار موتيز (٧٧)
- سوسيولوجيا الفن/جان دوفينيو (٢٠)
- صراع الطبقات/ريمون آرون (١٥٠)
- الطبقات الإجتماعية/بيار لاروك (١٨٨)
- في الدكتاتورية/موريس دوفرجيه (١٥)
- الماركسية بعد ماركس/بيار ومونيك فافر (٧٨)
- المجتمع الصناعي/ريمون آرون (١٤٤)

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth-Paris